الغني و لعازر

للقديس العظيم

يوحنا ذهبي الفم

بطريرك القسطنطينية

مراجعة وتقديم
نيافة الانبا متاؤس
أسقف دير السريان

الغنيّ ولعازر

سلسلة عظات عن

مَثل الغنيّ ولعازر

للقديس العظيم
يوحنا ذهبي الفم

مراجعة وتقديم

نيافة الحبر الجليل / الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

ترجم هذا الكتاب عن:

On Wealth and Poverty
St. John Chrysostom
Catharine P. Roth, Translator
St. Vladimir's Seminary Press
Crestwood, New York 10707

اسم الكتاب : الغني ولعازر.
اسم المؤلف : القديس يوحنا ذهبي الفم.
اسم المُترجم : بطرس كرم صادق.
الطبعة الأولى : مارس ٢٠٠٨
المطبعة : مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط.
موبايل: ٠١٢ ٢١٥٢٨٥٦ & تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٥٣٦٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N.: 977 - 17 - 5504 - 8

يوحنا (ذهبي الفم)
القديس يوحنا ذهبي الفم.
إسكندرية: بطرس كرم صادق، ٢٠٠٨ .
١٢٨ ص؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ٥٥٠٤ ١٧ ٩٧٧

١ـ المسيح ـ الأمثال
أ ـ العنوان

٢٢٧,٦٨

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

نيافة الحَبر الجليل الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء (السريان) العامر

باسم الآب والابن والروح القدس

الإله الواحد. آمين.

تقديم

بين يديك أيها القارئ العزيز كتاب بعنوان " الغنيّ ولعازر"، مترجم عن الإنجليزية عن كتاب "On Wealth and Poverty" من دُرَر وذخائر القديس العظيم يوحنا ذهبي الفم واعظ المدينتين أنطاكية والقسطنطينية، تكلم فيه بإسهاب عن مثل الغنيّ ولعازر، الذي ذكره الرب يسوع المسيح في إنجيل لوقا الأصحاح السادس عشر (١٩-٣١)، فسَّره وتأمل فيه من خلال ست عظات مطولة:

في **العظة الأولى:** تكلم القديس عن لعازر المسكين كمثال للصبر والإحتمال بدون تذمر، فقد احتمل لا بلية ولا اثنين بل تسعة بلايا صعبة، ولكنه احتمل بصبر وشكر أوصله إلى درجة الكمال الروحي، وجعله مؤهلاً للحياة الأبدية السعيدة، وقد قال معلمنا يعقوب الرسول في ذلك: "احسبوه كل فرحٍ يا إخوتي حينما تقعون في تجارب مُتنوعة، عالمين أنَّ امتحان إيمانكم يُنشئُ صبراً. وأمَّا الصبر فليكن له عملٌ تامٌّ، لكي تكونوا تامِّينَ وكاملين غير ناقصين في شيء " (يع ١: ٢ - ٤)، وقال أيضاً: "طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكّى ينالُ إكليل الحياة "(يع ١:١٢).

العظة الثانية: عن المعنى الحقيقي للغنى والفقر، فالغنى الحقيقي هو غنى الروح بالجهادات والفضائل، وأن يكون الإنسان غنياً فيما للّه (لو١٢:٢١)، والفقر الحقيقي هو الفقر الروحي من الفضائل والأعمال الحسنة والسيرة الصالحة: " لأنك تقول: إني أنا غني وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء، ولست تعلم أنك أنت الشَّقي والبَئِسُ وفقيرٌ وأعمى وعُريانٌ " (رؤ٣:١٧).

العظة الثالثة: يتكلم فيها عن الجهاد الروحي وضبط النفس بعيداً عن حياة الترف واللهو، كما علمنا معلمنا بولس الرسول بقوله: " كل من يُجاهد يضبط نفسه في كل شيء. أمَّا أولئك فلكي يأخذوا إكليلاً يفنى، وأمَّا نحنُ فإكليلاً لا يفنى ... أقمع جسدي وأستعبدُهُ، حتى بعد ما كَرَزتُ للآخرين لا أصيرُ أنا نفسي مرفوضاً " (١ كو ٩: ٢٥-٢٧). " أمَّا المتنعمة فقد ماتت وهي حيَّة " (١ تي ٥:٦).

العظة الرابعة: عن حياة التوبة والاعتراف التي بها ننال البُرء من خطايانا وبالتالي ننال الحياة الأبدية، كقول الرسول يوحنا: " إن اعترفنا بخطايانا فهو أمينٌ وعادلٌ، حتى يغفر لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كل إثم " (١يو ١:٩)، وكقول الحكيم: " من يكتمُ خطاياه لا ينجح، ومن يُقرُّ بها ويتركها يُرحَمُ " (أم ٢٨:١٣).

العظة الخامسة: عن تأديبات اللّه وانذاراته للخطاة حتى يتوبوا، ولا يستغلوا لطف اللّه وحنانه ومحبته للكسل والتراخي في التوبة، فمعلمنا بولس الرسول يقول: " أم تستهين بغنى لُطفِهِ وإمهاله وطول أناته ... غير التائب تذخَرُ لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة اللّه العادلة " (رو ٢: ٤ - ٥).

العظة السادسة: عن السير في الطريق الصعب (الكرب) والدخول من الباب الضيق المؤدي إلى الحياة الأبدية، والتمتع بالأمجاد السماوية. يقول الرب ناصحاً: "اُدخلوا من الباب الضَّيِّق لأنه واسع الباب ورَحبُ الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه! ما أضيق الباب وأكرَبَ الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هُم الذين يَجدونه " (مت ٧: ١٣، ١٤).

نشكر اللّه الذي سمح لهذه التأملات الروحية العميقة بالظهور إلى النور باللغة العربية لفائدة أبناء الكنيسة، ونشكر الأخ الذي قام بالترجمة.

ونتضرع إلى اللّه أن يجعل هذه التأملات سبب بركة ونمو روحي في حياة التوبة والإحتمال والعطاء لكل من يقرأها.

بشفاعة أمنا العذراء القديسة الطاهرة مريم، وصلوات القديس العظيم يوحنا ذهبي الفم بطريرك القسطنطينية، وصلوات ذهبي الفم القرن العشرين والحادي والعشرين البابا المكرم الأنبا شنوده الثالث.

واللّه يبارك كل عمل لمجد اسمه القدوس. آمين.

عيد نياحة القديس العظيم يوحنا ذهبي الفم.

(تذكار مرور ١٦ قرن على نياحته)

١٧ هاتور ١٧٢٤ ش، ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٧م

الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء (السريان) العامر

مقدمة[١]

القديس يوحنا ذهبي الفم[٢]:

القديس يوحنا ذهبي الفم عاش وخدم ووعظ في فترة زمنية تُعد مفترق طرق في تاريخ الكنيسة المسيحية، إذ أنه وُلِدَ نحو عام ٣٥٠م في أنطاكية بسوريا، بعد أن تثبّتت المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية في عهد الملك قسطنطين[٣]، وعاش في مدينة تلاقت فيها الحضارة اليونانية مع الثقافات المتنوعة للشرق الأدنى.

أسس الكنيسة في أنطاكية ق. بولس الرسول، وزارها ق. بطرس الرسول، وتزيَّنت بأسقفية ق. أغناطيوس حامل الإله الذي استشهد في عام ١٠٧م. كانت أنطاكية المدينة الثالثة للإمبراطورية (حتى قيام مدينة القسطنطينية) وكان يقطُنها نحو ٣٠٠ ألف نسمة أكثرهم يونانيين لكن بينهم أيضاً سوريين وفينيفيين ورومان ويهود وآخرين. كان لابد للمسيحية أن تُنافس الأديان المتعددة، بالإضافة إلى وسائل الجذب الدنيوية من مسارح وحلبات السباق. وكانت الزلازل والغزوات الفارسية من الأخطار الدائمة. ازدهرت أنطاكية نتيجة لموقعها على طرق التجارة، فكان بعض أسرها أغنياء جداً بينما البعض الآخر فقراء جداً، أما الأغلبية فكانوا في وضع مالي متوسط[٤].

ولد يوحنا من أبوين تقيين، توفى أبوه الذي كان قائداً في الجيش وهو لايزال طفلاً، فكرَّست والدته أنثوسا نفسها لتربية ابنها، وزودته بالتربية الدينية والأخلاقية الأساسية. تعلم ق. يوحنا التعليم الأساسي لعصره، وكانت قائمة

(١) تم ترجمة هذه المقدمة (بتصرف) عن مقدمة الترجمة الإنجليزية لكاترين روث (Catharine P. Roth .(Bicester, England

(2) Biographies of St. John: D. Attwater, St John Chrysostom, Pastor & Preacher (Milwaukee 1939); Dom C. Baur, O.S.B., St John Chrysostom and His Time (London 1959).

(٣) أعتلى الملك قسطنطين العرش عام ٣٠٦م وتوفى عام ٣٣٧م، في عام ٣١٣م أصدر مرسوماً للتسامح مع المسيحيين، فصارت لهم الحرية لممارسة عبادتهم، بعد اضطهاد دام أكثر من قرنين من الزمان.

(٤) القديس يوحنا في أحدى عظاته قدَّر الأغنياء في أنطاكية بنحو ١٠%، والفقراء جداً بنحو ١٠%، فيكون متوسطي الحال نحو ٨٠ % من الشعب (Homily on Gospel of Matthew 66.3, PG 58.630).

مطالعته تشمل الكتابات اليونانية الكلاسيكية للفلاسفة. لم يتعلم أي لغة أخرى بجانب اليونانية، لا اللغة اللاتينية التي استخدمت في الشئون الإدارية للإمبراطورية، ولا السريانية التي كان يتكلم بها سكان الريف. كان معلمه ليبانيوس Libanius مشهوراً ببلاغته وفصاحته إذ كانت خُطَبِه العامة تجذب مستمعين كثيرين. عظات يوحنا ذاتها صارت فيما بعد لها صورة مماثلة من الجاذبية للجماهير. يظهر تعليمه الكلاسيكي أيضاً في تذكره للشعراء القدماء بشكل عرضي، أمثال هوميروس، وفي تلميحاته للفلاسفة أمثال سولون Solon وسقراط Socrates وديوجينس Diogenes. كان تعليمه الأخلاقي يجمع بين روح العهد الجديد في سموه وتقليد الفلاسفة الذين علموا أن الفضيلة هي الشيء الصالح الوحيد وأن الحكمة هي المصدر الوحيد للحرية الحقيقية والغنى الحقيقي.

بالرغم من أن معمودية الأطفال كانت تمارس منذ زمن مبكر، إلا أن ق. يوحنا قَبِلَ سر المعمودية وهو في سن العشرين[٥] بواسطة رئيس أساقفة أنطاكية المحبوب القديس مليتيس St Meletius، وبعد بضعة سنوات تمت رسامته قارئاً (أغنسطس)، وبانضمامه لمدرسة أنطاكية للتفسير الكتابي تحولت اهتماماته للدراسات الدينية وللكتاب المقدس.

ألحت والدة يوحنا أنثوسا عليه بألا يفارقها ليصير راهباً طالما هي مازالت على قيد الحياة. انضم يوحنا بعد نياحتها لحياة النسك في إحدى التجمعات الرهبانية الموجودة على التلال قرب أنطاكية. أمضى أربعة سنوات في التدرب على حياة النسك تحت قيادة أحد الشيوخ، ثم اختار إحدى الكهوف المنعزلة ليحيا حياة التوحد، لكن تقشفه المفرط أرغمه بعد عامين للرجوع إلى أنطاكية. ربما يكون أيضاً الوقت الذي قضاه في التأمل ساعده على اكتشاف دعوته الحقيقية كقس ومعلم. خدم ق. يوحنا في أثناء العشرين سنة التالية – على وجه التقريب – كقارئ ثم شماس ثم قس. في سنوات خدمته كقارئ وشماس لا بد وأنه قد صار قريباً من شعب المدينة إذ أنه خدم في العبادة الليتورجية، وكان يجمع ويوزع

---

(٥) يبدو أن أطفال الأسر المسيحية في ذلك الوقت، كانوا يبقون ضمن مجموعة الموعظين، وعند بلوغهم سن الرشد، ويختاروا قبول العماد، كانت تسجل أسماءهم ضمن الأسماء المرشحة للمعمودية لعيد القيامة التالي.

الصدقات، وكان يساعد في تعليم الموعظين، وبالخبرة العملية تعرَّف على معاناة المساكين والمرضى، وصُدِمَ من الناحية الأخرى بغطرسة الأغنياء.

رسم الأب فلافيان رئيس أساقفة أنطاكية - الذي خلف ق. ميليتس- يوحنا كاهناً سنة ٣٨٦م، وكلَّفه بمهمة الوعظ. كان ق. يوحنا يعظ عادة في الآحاد في القداس الإلهي، وأحياناً في خدمة العشية يوم السبت، وفي خدمات المناسبات المقدسة الأخرى، كما في الخدمات المسائية اليومية في الصوم الكبير. كان محبوباً جداً من الشعب وكانت عظاته شعبية تجذب الجماهير إلا أنها لم تكن أكثر شعبية من المسارح وحلبات السباق. كثيراً ما كان يقاطع شعب الكنيسة عظاته بالتصفيق إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن الشعب كله كان يضع نصائحه للممارسة العملية. وبخ ق. يوحنا الشعب لمجيئهم الكنيسة عند بداية القداس الإلهي وانصرافهم مع الموعظين بعد سماع العظة، إذ كان لا يريد أن يجعل سماع العظة بديلاً للاشتراك في الصلوات الليتورجية والتناول المقدس. كان الشعب ينتظر منه أن يعظ عظة طويلة وفصيحة إلا أن هذا التوقع لابد وأن جعل وقت الخدمة ككل طويلاً في أغلب الأحيان، حتى بحسب المعايير الأرثوذكسية.

بجانب الوعظ وخدمة الأسرار كان ق. يوحنا يعطي الإرشاد الروحي لشعبه بشكل منفرد، وهو يذكر تحفيزهم على قراءة الكتاب المقدس بصورة منتظمة. نعلم كيف أنه قاد شعبه مع أسقفه في بعض الأزمات العامة، إلا أن رعايته الأبوية لابد وأن شعر بها أعضاء رعيته أيضاً في أوقات شدائدهم الخاصة.

أتت خدمة ق.يوحنا الكهنوتية في أنطاكية إلى نهاية مفاجئة عندما تنيح ق.نكتاريوس بطريرك القسطنطينية سنة ٣٩٧م، ومنذ ذلك الحين، تداخلت حياة ق. يوحنا - دون قصد من جانبه - في السياسة الكنسية والمدنية للعاصمة الإمبراطورية، وكان هذا المنعطف في حياته هو أيضاً البداية لضيقات كثيرة.

تم اختطاف ق. يوحنا من أنطاكية - خوفاً لئلا يمنع الشعب هذا الانتقال - ورسم بطريركاً عام ٣٩٨م. (لا نعلم بأي مقدار عارض ذلك لكن يبدو أنه لم يُعطَ أي اختيار). أحبه عامة الشعب في القسطنطينية كما أحبه من قبل شعب أنطاكية. أما أعداؤه فكانوا الأحبار الطموحين ورجال الحاشية الملكية

والإمبراطورة أفدوكسيا، التي ظنت أن ق. يوحنا كان يهاجمها شخصياً عندما كان يشجب الرفاهية والفجور في عظاته.

خلاصة القول، أُرسل ق. يوحنا إلى المنفى، إلا أنه استمر في تشجيع أصدقائه المخلصين من منفاه بواسطة مراسلاته، نظراً لعدم استطاعته مخاطبتهم شخصياً. وبعد حياة مقدسة تكللت بالآلام تنيح في شهر سبتمبر عام ٤٠٧م وهو لا يزال يعطي المجد للّه.

سلسلة عظات مثل الغنيّ ولعازر[٦]:

أثناء فترة كهنوته في أنطاكية، قدَّم ق. يوحنا هذه السلسلة من العظات على مثل الغنيّ ولعازر، ربما في عام ٣٨٨م أو ٣٨٩م. بدأ عظته في اليوم الثاني من يناير مشيراً إلى الاحتفالات المشينة لأعياد الساترناليا Saturnalia[7] التي كانت تجرى في اليوم السابق الموافق بداية السنة الشمسية. وبينما كانت حفلات السمر والشرب والترفيه تجرى على قدم وساق كان أعضاء الكنيسة المؤمنون ينصتون للقديس يوحنا وهو يعظهم بأن يعملوا كل شيء لمجد اللّه[٨]. الآن وقد رجعوا لليوم الثاني على التوالي للكنيسة بدأ في تقديم هذا المثل. أستمر في الحديث عن هذا المثل في المناسبتين التاليتين (ربما يومي السبت والأحد التاليين). قال للجمع في المرة الرابعة أنه كان ينوي الانتهاء من تفسير المثل إلا أنه وجد من الضروري أن يمدح الشهداء في ذكراهم: ق. بابيلاس Babylas[9] وق. جفنتينوس Juventinus وق. مكسيمينس Maximinus[10]. عيد تذكار ق. بابيلاس يوافق ٢٤ يناير أي بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من إلقاء العظة الأولى عن

---

(٦) النص اليوناني لهذه العظات الذي أخذت عنه الترجمة الإنجليزية نجده في باترولوجيا ميني (PG48.963-1054). والجدير بالذكر أن العظة الخامسة المنضمة لهذه السلسلة في النص اليوناني لم تُضم لهذا الكتاب لعدم وجود أي علاقة مباشرة بينها وبين موضوع الفقر والغنى.

(٧) عيد أو مهرجان ساترناليا كان الرومان يكرمون فيه ساترن Saturn إله البذور والزراعة عندهم، ويحتفلون ببداية السنة، وكانت الاحتفالات تستمر لعدة أيام.

(8) PG 48.953-961.

(٩) القديس بابيلاس كان رئيس أساقفة أنطاكية واستشهد في عام ٢٥٠م.

(١٠) الشهداء جفنتينوس ومكسيمينس كانا ضباطاً في الجيش واستشهدا في أنطاكية عام ٣٦٢م بأمر يوليانوس الجاحد.

لعازر، أما جفنتينوس ومكسيمينس فكانا يكرما بعد هذا التاريخ ببضعة أيام. بعد ذلك قدم ق. يوحنا عظته الرابعة على المثل في المناسبة التالية. ثم بعد أسبوع على الأرجح بدأ عظته الخامسة من السلسلة بقوله أنه يمكنه أن يتكلم أكثر على المثل لكنه سوف يناقش موضوعاً آخر بدلاً منه حتى يمنع سامعيه من التخمة.

أما العظة السادسة والسابعة فقد أعطيتا في وقت لاحق من نفس السنة، بينما كان المثل مازال متقداً في ذهنه وفي ذهن شعبه. العظة السادسة قدمت بعد حدوث زلزال، إذ بدا الوقت مناسباً للكلام عن عقاب اللّه وضرورة اختيار الطريق الصحيح للحياة قبل أن يكون ذلك متأخراً جداً. العظة السابعة بدأت بتحذير أولئك المترددين على حلبات السباق مستخدما آية: "ادخلوا من الباب الضيِّق"، ثم وردت بسهولة قصة الغنيّ ولعازر لذهن الواعظ كتطبيق حي على المسافرين في الطريق الضيِّق والطريق الواسع.

أعطى مثل الغنيّ ولعازر ق. يوحنا الفرصة لمعالجة عدّة موضوعات مفضلة لديه. أولاً هناك السؤال القديم: لماذا نرى أبرار يعانون بينما يحيا الخطاة في ازدهار؟ ويليه السؤال الأخلاقي: ما الذي يتوقعه اللّه منا كفقراء أو أغنياء؟ أو بمصطلح عام أكثر: كيف نحقق خلاصنا؟

العظة الأولى:

يستعرض ق. يوحنا في العظة الأولى حياة كل من لعازر والرجل الغنيّ، يعبر فوق الخواص الأخلاقية للرجلين، فيناقش ما هو الخطأ في الحياة المرفهة وما هو الحسن في حياة الفقر. هل كل الأغنياء مدانون وهل كل الفقراء مطوَّبون؟ بالطبع لا، إلا أن الفقراء لهم فرصة أفضل. الذنب الرئيسي للرجل الغنيّ هو فشله في إعطاء صدقة وتجاهله واجب مساعدة جاره، بالإضافة إلى إساءته لصحته الروحية الخاصة من جراء إطلاقه العنان لأهوائه. لعازر من الناحية الأخرى أستخدم معاناته في تعزيز قوته الروحية عن طريق احتماله الألم بصبر بلا تذمر.

بالرغم من أن ق. يوحنا لا ينكر بأن الفقر محنة إلا أنه يهتم أكثر بالتقدم الروحي عن التقدم المادي. إن كنا نرغب في تخزين كنوز في السماء يجب

علينا أن نحفظ وصية المحبة نحو القريب ونمارس الزهد المناسب لحالتنا من أجل منفعة أرواحنا.

العظة الثانية:

أما العظة الثانية فتَعبُر على موت الرجلين، الموت يكشف من كان بالحقيقة غني ومن كان بالحقيقة فقير. الرجل الذي عاش وحيداً تستقبله الملائكة بكرامة، بينما يمكث الرجل الغنيّ وحيداً في الجحيم بعد أن فقد كل أتباعه، وعند ق. يوحنا هنا الكثير ليقوله عن الواجبات الإيجابية للأغنياء، فيجب أن يحتفظوا بممتلكاتهم كوكلاء لصالح الفقراء، ويجب أن يشاركوهم في ثرواتهم بغض النظر عن استحقاق المحتاج وصفاته الأخلاقية. إن أنفقنا على أنفسنا أكثر من الضروري، نستحق نفس العقوبة كما ولو كنا قد سرقنا هذا المال. لم يطالب القديس يوحنا سامعيه بأن يبيعوا كل شيء ويعطوا الفقراء، فهو يخاطب عامة المؤمنين الغير مدعوين للحياة الرهبانية، لكنهم مع ذلك مدعوون لحياة مقدسة وفقاً للإنجيل وهم في العالم. يوضح ق. يوحنا – مثل الآخرين من الآباء – بأن الملكية الخاصة مع كونها شرعية بالنسبة للقانون المدني إلا أنها ليست فكرة مسيحية: "لأن ممتلكاته الخاصة ليست له بل تخص زملاءه العبيد". نجد في عظة أخرى أن ق. يوحنا يتقدم في هذا السياق للدرجة التي يقترح فيها بالرجوع إلى الممارسة الرسولية بجعل كل شيء مملوكاً للمسيحيين مشتركاً بينهم[١١]، لكنه يدرك بأن سامعيه ليسوا مستعدين لمثل هذا التغيير الجذري حتى بين الجماعة المسيحية[١٢]. لم يكن هناك بالطبع لسامعيه أي وسيلة ممكنة لتعديل الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية للإمبراطورية الرومانية، وبالتالي لا نتوقع من ق. يوحنا أن يقدم أي برنامج سياسي في هذا الشأن، إلا أنه يُركز بشكل واقعي على الفرص المتاحة أمام كل شخص مسيحي للأعمال الصالحة، وتقديم الصدقة، وحسن إضافة الغرباء.

---

[١١] " ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً " (أع ٤:٣٢).

[١٢] عظات ذهبي الفم على أعمال الرسل (Homily 11.3, PG 60.96-98).

العظة الثالثة:

في العظة الثالثة يتكلم ق. يوحنا عن الطلب الأول للرجل الغنيّ بأن يحضر له لعازر قطرة ماء، وعن إجابة إبراهيم له. ما هي العلاقة بين بؤسنا أو ازدهارنا في هذه الحياة وبين وضعنا في الحياة الآخرى؟ هل يمكن أن نكسب طريقنا إلى الفردوس عن طريق الآلام – الطوعية أو الإلزامية – في هذه الحياة؟ ليس الأمر كذلك بالضبط - بحسب ق. يوحنا - لكن الآلام الأرضية إن احتملت بصبر يمكنها أن تساعدنا على التخلص من بعض خطايانا ومن العقوبة المستحقة عليها. يستعمل في ذلك لغة مجازية كغسل وتذويب ذنوبنا، بالإضافة إلى التعبيرات القضائية والمالية (دفع دين أو غرامة وقصاص). كل إنسان منا عنده بعض الذنوب بغض النظر عن درجة صلاحه، لكن إذا كان الاتجاه العام لحياتنا مستقيماً يمكننا أن ننهي آلامنا المستحقة علينا قبل الموت. بالإضافة إلى ذلك، نحتاج أن ندرب أنفسنا على الفضيلة لكي نصبح قديسين كما يريدنا اللّه أن نكون. إن كنا فقراء أو مصابين بمرض مزمن فاجتهادنا على الاحتمال بصبر وشكر هو تنسك كافٍ ووافٍ. إن كنا أغنياء وأصحاء جسدياً فيجب علينا أن نمارس التقشف طوعياً لكي نتغلب على ميولنا الشريرة ولكي ننمي في أنفسنا سمات الفضيلة. هل هذا هو الخلاص بالأعمال؟ إن التعارض الحديث بين الأعمال والإيمان لم يكن له وجود حينذاك عند آباء العصر الذهبي الذين كتبوا باليونانية. لا شك أن نعمة اللّه هي التي تخلصنا كما يصلي ق. يوحنا في نهاية كل عظة. النعمة تساعد إرادتنا الذاتية فتعزز الصلاح فينا. يركز ق. يوحنا كراعٍ ومعلم للأخلاق على ما هو متوقع منا أن نفعله.

يتكلم ق. يوحنا في ختام العظة الثالثة عن الهوة العظيمة التي تفصل بين الفردوس والجحيم. ثم يثير مسألة الصلوات الشفاعية من أجل الأموات. يُعلم آباء الكنيسة الأرثوذكسية بشكل عام – بالرجوع للنصوص الإنجيلية كهذا المثل – بأنه يجب علينا أن نختار مسارنا مع أو ضد اللّه في هذه الحياة، وأن بعد العبور للحياة الأخرى لن يكون هناك أية فرصة للهروب من الجحيم. لذلك يقول ق. يوحنا هنا لشعبه، إن لم يسعوا جاهدين لنوال الفضيلة أثناء حياتهم فيجب عليهم أن لا يتوقعوا الخلاص بواسطة صلوات الآخرين سواء كانوا آباءهم الروحيين أو أقربائهم القديسين.

العظة الرابعة:

تتكلم العظة الرابعة عن الطلب الثاني للرجل الغنيّ بإرسال لعازر لافتقاد أخوته. لماذا نؤمن بالدينونة بعد الموت إن كنا لا نستقبل زوار من الحياة الأخرى؟ أولاً لأن عندنا موسى والأنبياء وبقية الأسفار المقدسة، ثانياً المنطق يخبرنا بأنه إذا كان اللّه عادل وبما أن الناس لا يأخذون استحقاقهم في هذه الحياة، إذاً لابد وأن يكون هناك وقت للمجازاة بعد الموت. ثالثاً لا بد وأن اللّه أعطانا الضمير لغرض ما، فالضمير وظيفته أن يحثنا على الاعتراف بخطايانا. إن قدمنا توبة واعترفنا بخطايانا فسوف يغفر لنا اللّه ويشفينا ويساعدنا لكي نصير أبراراً. وفي الكلام عن الضمير يتخذ ق. يوحنا يوسف الصديق وأخوته مثالاً، فأخوته حكموا على أنفسهم بواسطة ضميرهم الذاتي حتى قبل أن يتعرفوا على يوسف في مصر. ومن الناحية الأخرى، يوسف نفسه مثل لعازر يقدم لنا مثالاً على الثقة الصبورة في عناية اللّه وتدبيره. ويختم ق. يوحنا كلماته بتلخيص كل ما قاله في هذه العظات الأربعة: إن كنا قد أخطأنا (والجميع قد أخطأوا) يجب أن نتوب ونعترف، يجب أن نعطي صدقة ونمارس الفضيلة حتى ما نطرح خطايانا بعيداً ونهيئ أنفسنا للحياة في السماء.

العظة الخامسة:

بعد مضي بعض الوقت – في نفس العام على الأرجح – اجتاح زلزال مدينة أنطاكية وتسبب في مآسي وأضرار جسيمة وقتلى وجرحى. يبدأ ق. يوحنا عظته بقوله أنهم أمضوا ثلاثة أيام في الصلاة لكن الآن قد مضى الزلزال. تُعد هذه العظة هي الأطول مقارنة بالأربعة عظات السابقة، إلا أنها أقل تنسيقاً، فقد يظن البعض أنه كان يتكلم بشكل ارتجالي، مستخدماً أفكار حاضرة في ذهنه أو خطرت على باله بسبب الظروف الراهنة. هو يدرك أن موضوعه مألوف لسامعيه إلا أنه مع ذلك يطالبهم بالإنصات. كثيراً ما يطلب ق. يوحنا الانتباه من مستمعيه، وكثيراً أيضاً ما يُذكِّر نفسه بالعودة للموضوع.

إن حدوث كارثة كالزلزال ـ بحسب ق. يوحنا ـ يجب أن تجعلنا يقظين لدينونة اللّه التي قد فلتنا منها في ذلك الحين. يجب على الفقير أن يتدرب على

الصبر، والغنيّ أن يعطي صدقة. الكل يجب أن يسعى وراء الفضيلة، الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، الأحرار والعبيد.

يستطرد ق. يوحنا عند هذه النقطة فيتكلم عن نشأة العبودية (الرق)، فيقول أن كل البشر خلقوا أحراراً، آدم وحواء على السواء، ودخلت العبودية بواسطة خطيئة حام الذي رأى نوح عارياً وجلب على نفسه لعنة أبيه. من وجهة نظر المسيحية، العبد الحقيقي هو الشخص المقيد بالخطيئة أما العبد الذي يعيش حياة مقدسة فهو بالحقيقة حراً. هنا يستخدم ق. يوحنا العبارات المتضادة الشائع استخدامها عند الفلاسفة الرواقيين. آنذاك يذكره موضوع العبودية بأنسيمس العبد الذي جلبت له فضيلته الحرية. لا يذهب ق. يوحنا إلى الحد الذي يطالب فيه المسيحيين بتحرير عبيدهم إلا أن البيزنطيين الأتقياء كثيراً ما فعلوا ذلك في وصيتهم أو عند دخول الحياة الرهبانية(١٣). إذ لم يكن المجتمع مستعداً بعد لتحرير العبيد بشكل عام.

أما بالنسبة لنا، فهل نحن على استعداد لقبول جميع البشر كأبناء أحرار للّه، مهما كانت طبقتهم الاجتماعية أو نوعية وظيفتهم (أو حتى بطالتهم)؟

العظة ترجع بعد ذلك إلى المثل، إلى مجازاة كل من لعازر والرجل الغنيّ. الرجل الغنيّ أخذ مكافأته على أعماله الحسنة في هذه الحياة حتى يمنعه ذلك من تقليل عقوبته في الآخرة. كان يمكنه أن يساعد نفسه لو كان قد أشرك غيره في ثراءه ولذلك ليس له مطالبة براحة في عذابه، أما لعازر فالعقوبة على خطاياه – مهما كان نوعها – قد فرضت عليه في هذه الحياة حتى لا تنقص سعادته في الآخرة.

في نهاية العظة يضيف القديس يوحنا أمكانية أن يتعرض إنسان ما لآلام وضيقات في هذه الحياة بما يفوق مقدار خطاياه، وفي هذه الحالة يصل إلى السماء ومعه رصيد في صالحه، هذا بدوره يعطيه سعادة وأمجاد أكثر بين الأبرار في السماء.

---

(13) See the index of Constantelos, Byzantine Philanthropy and Social Welfare, under "slaves, freeing of"

العظة السادسة:

العظة الأخيرة تدور حول آية "أدخلوا من الباب الضيِّق". تبدأ أولاً بشجب أولئك الذين يترددون على حلبات السباق. لماذا كانت حلبات السباق مشكلة خطيرة هكذا؟ ربما كانت هناك معارك يتقاتل فيها المتصارعين حتى الموت، بالإضافة إلى سباقات المركبات أو على الأقل معارك بين المتصارعين والحيوانات. ربما كانت هناك عروض غير لائقة بين شطري المسابقة الأول والثاني. يقول ق. يوحنا أن المسيحيين الذين يترددون على هذه السباقات يقدمون مثالاً سيئاً للمهتدين إلى المسيحية، بالإضافة إلى أنهم يضيعون أوقاتهم. وقبل كل شيء يبطلون عمل التدريب الروحي الذي شرعوا فيه في الكنيسة. ربما كانوا يجعلون من التسلية – كما يفعل البعض في الوقت الحاضر – بديلاً للدين بارتباطهم الحماسي بقائد المركبة هذا أو ذاك. على أية حال، بفعلهم هذا كانوا يسيرون في طريق سهل وبالتالي سيقبلون على نهاية سيئة.

الكلام عن الطريق السهل والطريق الكرب يُذكر الواعظ بالشخصيتين المفضلتين لديه: الرجل الغنيّ السائر في الطريق السهل ولعازر السائر في الطريق الكرب. بالإضافة لما قاله من قبل، نجده يعالج مسألة إن كانت الثروة حقيقة شيء حسن وإن كان الفقر حقيقة شيء سيء. مرة أخرى يستخدم المفارقات الشائعة في الأسلوب الرواقي. الرجل الغنيّ أخذ في حياته ما ظن أنه حسن لكنه لم يدرك بأن هناك أشياء أخرى أفضل بكثير. ومن الناحية الأخرى تقبل لعازر ما كان يعتبره الرجل الغنيّ شراً (الفقر والمرض) إلا أنه تطلع إلى ما هو أبعد من المظاهر الخارجية وجاهد من أجل الأشياء الحسنة بالحقيقة أي الفضيلة ومكافأته السماوية.

العظة الأولى

لعازر كمثال

للتحمل والصبر

"كـــــان إنســـــانٌ غنـــــيٌّ
وكـــانَ يلـــبسُ الأرجـــوان والبـــزَّ
وهـــو يتـــنعَّمُ كـــل يـــوم مُترفِّهـــاً.
وكـــان مســـكينٌ اسمـــهُ لعـــازر،
الـذي طُـرِحَ عنـد بابِـهِ مضـروباً بـالقروح،
ويشـــتهي أن يَشـــبعَ مـــن الفُتـــات
الســـاقط مـــن مائـــدة الغـــنيِّ،
بـل كانـت الكـلابُ تـأتي وتلحسُ قُروحَـهُ".

(لو١٦: ١٩-٢١)

العظة الأولى

لعازر كمثال للتحمل والصبر

ليكن العيد عيداً روحياً:

مع أن الأمس كان يوم عيد للشيطان[١٤]، إلا أنكم فضلتم أن تجعلوه عيداً روحياً، فقضيتم معظم اليوم هنا في الكنيسة، مستقبلين كلماتنا بإرادة صالحة، شاربين من شراب ضبط النفس وراقصين في جوقة بولس الرسول. لقد حصلتم بهذا السلوك على منفعة مضاعفة: حفظتم أنفسكم من رقص السكارى المضطرب، وابتهجتم برقص روحي منسق تنسيق جيد. لقد اشتركتم في وعاءٍ مملوءٍ بالتعليم الروحي عوضاً عن وعاءٍ مملوءٍ بالخمر المسكر، لقد صرتم مزماراً وقيثارةً للروح القدس بينما رقص الآخرون للشيطان. لقد أعددتم أنفسكم بحضوركم هنا لكي تكونوا آلات وأوعية روحية، وأجزتم للروح القدس أن يعزف على أرواحكم، وقبلتم أن تستنشقوا نعمته داخل قلوبكم، وهكذا قدمتم لحناً متناسقاً لإبهاج لا الجنس البشري فقط بل قوات السماء أيضاً.

طالما أن هذا العيد باقياً والشيطان مستمراً في إصابة النفوس السكارى بالشراب، واجبنا هو الاستمرار في تقديم الأدوية، لذلك يجب أن نمضي قدماً نحو إدانة حياة التَرف.

لقد حَصَّنَّا أنفسنا بالأمس ضد السكر[١٥] بكلمات بولس الرسول: "فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً، فافعلوا كل شيء لمجد اللَّه" (١كو١٠: ٣١)، أما اليوم فسوف نعرض كلمات رب بولس الذي لم ينصح فقط بالامتناع عن الحياة المترَفة، بل أدبَّ وعاقب إنساناً عاش في تنعم، فقصة الغنيّ ولعازر وما حدث لكلاهما تعرض هذا بوضوح.

---

[١٤] عيد ساترناليا كان الرومان يكرمون فيه ساترن Saturn إله الزراعة، وكانت الإحتفالات تتسم بالمجون والعبث.

[١٥] عظة القديس يوحنا ذهبي الفم في اليوم السابق كانت عن الخمر والسكر، وقد حث شعب كنيسته أن لا يتوقفوا عن توبيخ أولئك الذين يشربون بإفراط.

من الأفضل أن أقرأ لكم المثل من البداية حتى لا نتناوله بإهمال: "كان إنسان غنيٌّ وكان يلبس الأرجوان والبزّ وهو يتنعم كل يوم مترفهاً، وكان مسكين اسمه لعازر الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح، ويشتهي أن يَشبع من الفُتات الساقط من مائدة الغنيّ، بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه" (لو١٦: ١٩-٢١).

اتفاق الإنجيليين وتمايزهم:

قد نتساءل لماذا يتكلم الرب بأمثال؟ ولماذا يشرح البعض ولا يشرح البعض الآخر؟ وما هو حقيقة المثل؟ والعديد من الأسئلة الأخرى، إلا أننا سوف نترك الإجابة على هذه الأسئلة لوقت آخر حتى لا نؤخر هذا الموضوع المُلح الآن.

سنسأل فقط هذا السؤال: مَن مِن الإنجيليين ذكر لنا قصة هذا المثل؟ ذكرها ق. لوقا فقط، فبعض أحداث السيد المسيح ذكرها جميع الإنجيليين الأربعة، وبعض آخر أنفرد بذكره إنجيلي واحد. هذا الأمر يحثنا على قراءة جميع الأناجيل، ويجعلنا ندرك روعة اتفاقهم، فلو كان جميعهم ذكروا كل شيء ما كنا نعير انتباهاً دقيقاً للأربعة، إذ أن إنجيلاً واحداً كان سيكفي لتعليمنا كل شيء، ولو كان كل شيء ذكروه مختلف عن الآخر ما كنا سنرى اتفاقهم الشديد، لهذا السبب كتبوا كلهم أشياء عديدة مشتركة بينما أختار كل واحد منهم بعض الأشياء لذكرها منفرداً.

سمات شخصية الرجل الغنيّ:

لننتبه الآن إلى ما يعلمه السيد المسيح بهذا المثل: كان هناك رجل غني يحيا في شر عظيم، ولم يكن هذا الرجل مجرَّباً بأي بلية بل كان كل خير يتدفق نحوه كما من ينبوع، فكلمة "يتنعم كل يوم" ذاتها تدل على أنه لم يحدث له أي أمرٌ غير متوقع، ولا وُجدَّ في حياته كلها أي داع لضيق أو اضطراب.

من الواضح أنه عاش حياة شريرة، نتحقق من ذلك بالنظر إلى النهاية التي وقعت من نصيبه، بل وقبل النهاية أيضاً من احتقاره للمسكين، فهو قد أظهر ذلك بوضوح ليس فقط بتجاهله الإنسان الذي على بابه بل لكونه لم يعطي صدقة لأي إنسان آخر أيضاً، لأنه إن كان لم يعط صدقة لذلك الشخص المنبطح على وجهه

بشكل مستمر على بابه، المضطجع أمام عينيه، الذي كان لابُدَّ وأن يراه كل يوم مرَّة أو مرَّتين أو أكثر كلما دخل وخرج - فالمسكين لم يكن مطروحاً في الطريق أو في مكان ضيِّق أو مخفي بل حيثما كان الرجل الغنيّ، أي كان مجبراً أن يراه في دخوله وخروجه – فإن كان لم يعط صدقة لذلك الشخص المطروح في مثل هذه المعاناة الشديدة، ومثل هذا الفقر المدقع، أو بالأحرى مصاب حياته كلها بمرض عضال من أبشع الأمراض، فهل كان من الممكن أن يتحرك قلبه بالشفقة في أي وقت آخر نحو المساكين الآخرين الذين كان يقابلهم؟!

إذا افترضنا أنه مر به في اليوم الأول بدون اهتمام فمن المحتمل أن يشعر ببعض الشفقة نحوه في اليوم التالي، وإن تغافل عنه أيضاً في اليوم التالي فمن المتوقع جداً أن يتحرك قلبه في اليوم الثالث أو الرابع أو بعد ذلك - حتى ولو كان أكثر قسوة من الوحوش البرية – لكنه لم يشعر بأية شفقة بل صار قلبه أكثر قسوة حتى من ذلك القاضي الظالم الذي لم يعرف خوف اللّه ولا الحياء أمام الناس(١٦)، لأن إصرار الأرملة أقنع ذلك القاضي - مع كونه فظ وقاسي – أن يمنح الإحسان، وأمام توسلها تحرك بالشفقة، أما ذلك الرجل الغنيّ فلم يحركه وجود لعازر المستمر أمامه للمساعدة، بالرغم من أن حاجة لعازر غير متكافئة مع حاجة الأرملة، بل حاجته أكثر استحقاقاً وأسهل تحقيقاً، لأن الأرملة تضرعت للقاضي لكي يساعدها ضد أعدائها، أما ذلك المسكين التمس فقط من الرجل الغنيّ أن يعتقه من الجوع ولا يتجاهله وهو يرقد رقاد الموت، الأرملة أزعجت القاضي بتوسلاتها، أما ذلك المسكين فكان يظهر مضطجعاً أمام الغنيّ مرات عديدة يومياً لكن في صمت – هذا فيه الكفاية لتذويب حتى القلب الحجري – ففي أغلب الأحيان عندما يتم إزعاجنا بتوسلات المحتاجين نحتد بالأكثر، لكن عندما نراهم واقفين في صمت كامل بدون التفوه بأي كلمة، غير شاكين - بالرغم من احتياجهم الشديد – بل مجرد ظاهرين أمامنا في صمت، فحتى ولو كنا فاقدي الحس أكثر من الحجارة ذاتها، إلا أننا سنخجل من التأدب الزائد ونتحرك بالشفقة.

---

(١٦) " كان في مدينةٍ قاضٍ لا يخاف اللـه ولا يهاب إنساناً. وكان في تلك المدينة أرملة. وكانت تأتي إليه قائلة: انصفني من خصمي! وكان لا يشاء إلى زمانٍ. ولكن بعد ذلك قال في نفسه: وإن كُنت لا أخاف اللّـه ولا أهاب إنساناً، فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني، أنصفها .." (لو١٨: ٢- ٥).

حقيقة أخرى ليست أقل أهمية، وهي أن مظهر المسكين ذاته كان يُرثى له، إذ جسده كان منهكاً من جراء الجوع والمرض المزمن، وبالرغم من هذا المظهر إلا أن ذلك الإنسان غليظ القلب لم يروضه أي شيء من ذلك.

هذه القسوة لا يضاهيها شيء فهي أردأ أنواع الشرور. إذا كان هناك شخص ما يحيا حياة فقيرة ولا يساعد المحتاجين فهذا شيء، لكن إذا كان ذلك الشخص يتمتع بمثل هذه الرفاهية ويتجاهل الآخرين الذين يهزلون من الجوع فهذا شيء آخر. وكونك ترى إنساناً فقيراً مرة أو مرتين وتعبر فهذا شيء، لكن كونك تراه يومياً ولا يدفعك منظره المُلحّ للرحمة والسخاء فهذا شيء آخر. ومن جانب آخر أيضاً، إذا كان شخص ما منزعج قلبياً بسبب محنة أو بلية ولا يساعد قريبه فهذا شيء، أما إذا كان ذلك الشخص يتمتع بمثل هذه السعادة وبثروة كبيرة مستديمة ويتجاهل الآخرين الذين يحتضرون من الجوع، ويصُدّ قلبه، ولا تحوله بهجته الخاصة ليكون أكثر كرماً فهذا شيء آخر، فأنتم بلا شك تعرفون أننا عادة نكون أكثر لطفاً وتعاطفاً في زمن الرخاء، أما ذلك الإنسان لم يتحسن نتيجة لازدهاره لكنه بقى وحشياً على حاله أو بالأحرى فاق قَسْوة أي وحش في سلوكه.

تنعَّم الرجل القاسي الذي عاش حياة شريرة بكل نوع من الحظ الوافر، أما الرجل الصالح الذي مارس الفضيلة تحمل درجات قصوى من البلايا، إذ نستطيع أن نبرهن على صلاح لعازر من نهاية حياته - كما ذكرنا قبلا - وأيضاً من كونه تحمل الفقر بصبر.

ألا يظهر أمامكم الموقف كله كما لو كان حاضراً؟

كانت سفينة الرجل الغنيّ ممتلئة بالبضائع الكثيرة وأبحَرت تجاه الريح، لكن لا تستعجبوا لهذا، إذ أنه كان يُعجّل بغرق سفينته، نظراً لأنه رفض إفراغ حمولته بتعقل.

خطورة حياة التَرف والكسل:

هل أذكر لكم شراً آخر من شرور الرجل الغنيّ؟ ولائمه اليومية المترَفة والمجَّردة من المبادئ الأخلاقية، فهذا حقاً شر بالغ، ليس فقط في الوقت الحاضر

(عهد النعمة) الذي فيه مثل هذه الحكمة العظيمة متوقعة منا، بل حتى في زمن العهد القديم الذي فيه لم تكن قد أُظهِرت بعد مثل هذه الحكمة.

لنسمع ما يقوله النبي: " ويل لكم أنتم الذين تقتربون من يوم البلية، تدنون، وتتخذون سبوت كاذبة" (عا ٦ :٣ س)[١٧] ماذا يعني بكلمة " تتخذون سبوت كاذبة"؟ ظن اليهود أن السبت قد أعطى لهم للكسل، بالطبع هذا ليس هو الغرض منه، بل الغرض منه هو أن يصرفوا أنفسهم من الاهتمامات العالمية ويكرسوا كل راحتهم للاهتمامات الروحية، وهذا واضح من الحقائق الكتابية، فالسبت موضوع ليس للكسل بل للعمل الروحي، وكان الكاهن في ذلك اليوم يعمل عملاً مضاعفاً، فبينما كانت تُقدَّم ذبيحة واحدة كل يوم، كُلِفَ الكاهن بتقديم ذبيحة مضاعفة في ذلك اليوم خاصة. لو كان السبت موضوعاً للكسل ليس إلا، لوجب أن يتكاسل الكاهن أكثر حتى من بقية الشعب. لكن اليهود بالرغم من إعفاءهم من النشاطات الدنيوية لم يلازموا الأمور الروحية كضبط النفس والرحمة وسماع الكتب المقدسة بل فعلوا عكس ذلك، آكلين بنهم حتى التخمة، شاربين حتى السكر، محتفلين بإسراف. لهذا السبب يدينهم النبي، فعندما قال: "ويل لكم أنتم الذين تَقْرُبون من يوم البلية" ثم أضاف "تتخذون سبوت كاذبة" أظهر في كلماته التالية كيف أن سبوتهم كانت كاذبة.

كيف جعلوا سبوتهم كاذبة؟ بعمل الشر، باحتفالاتهم وسكرهم، وفعل الكثير من الأعمال المحزنة والمشينة. لإثبات صحة هذا الكلام، لنسمع ما يضيفه النبي بعد ذلك مباشرة: "المُضطجعون على أسرَّةٍ من العاج، والمُتمدِّدون على فُرُشِهِم، والآكلون خرافاً من الغنم، وعجولاً من وسط الصِّيرةِ، الهاذرون .. ، الشاربون من كؤوس الخَمر، والذين يدَّهنون بأفضل الأدهان" (عا ٦: ٤ - ٦). قد استلمتم وصية السبت لكي تحرروا أنفسكم من الشرور، لكنكم عوضاً عن ذلك استعبدتم أنفُسكم لها بالأكثر.

نوم على أسرة من عاج!!! أيوجد شيء أسوأ من ذلك العبث؟! الخطايا الأخرى كالسكر والجشع والتبذير قد تقدم بعض اللذة - ولكنها ضئيلة - أما النوم

---

(١٧) كان القديس يوحنا يستعمل الترجمة السبعينية عند الاقتباس من العهد القديم، وسوف يتم إضافة حرف (س) إلى الشاهد للإشارة إلى ذلك.

على أسرَّة من عاج فما اللذة في ذلك؟ أي راحة في ذلك؟ فجمال السرير لا يجعل نومنا أكثر عذوبة أو أكثر متعة، أليس كذلك؟ بل على العكس يجعله شاقاً ومرهقاً - إذا كان عندنا أي فهم - **فعندما تفكر ملياً أنه يوجد إنسان غيرك لا يتنعم حتى بخبز كاف لشبعه، بينما تنام أنت على سرير من العاج، ألا يحكم عليك ضميرك وينهض ضدك حتى تشجب بشدة هذا الفعل الظالم؟** أما إذا كان الاتهام موجه ليس فقط للنوم على فراش من عاج بل على فراش مزخرف أيضاً بالفضة من كل جانب، فأي تبرير يجده المرء لذلك؟!

روعة سرير ملك وآخر لرائي:

أتريد أن تعرف ما هو الشيء الذي يجعل السرير جميلاً بالحقيقة؟ سوف أعرض عليك الآن روعة السرير، ليس لمواطن أو جندي عادي بل لملك، فحتى لو كنت إنساناً طموحاً أكثر من جميع الناس إلا أنك لن تتمنى أن يكون لك سرير أكثر روعة من سرير ملك، بالإضافة إلى أنني لا ألمح لأي ملك عادي بل إلى الأكثر عظمة، الأكثر ملوكية من جميع الملوك، الذي مازال يُكرَّم في التسابيح في كل مكان في العالم، سوف أعرض عليك سرير داود الملك الطوباوي.

ما نوع هذا السرير الذي كان يستعمله؟ سرير ليس مُزيَّناً من كل جانب بالفضة والذهب لكنه مزين بالتوبة والدموع، يذكر هو نفسه ذلك عندما يقول: "أُعَوِّمُ في كل ليلة سريري بدموعي أُذَوِّبُ فراشي" (مز٦:٦) فهو يهيئ دموعه كاللآلئ في كل مكان على سريره، تأملوا معي كيف كان يحب اللَّه من كل نفسه، إذ كانت له في النهار اهتمامات كثيرة تشوه الذهن وتصرف الانتباه – اهتمامات متعلقة بالحكام والقادة والأمة والشعب والجنود والحروب والمناورات السياسية والمشاكل داخل بيته وخارجها أو بين جيرانه – أما وقت الراحة الذي يستخدمه أي إنسان آخر للنوم، أستخدمه هو للاعتراف والصلوات والدموع، لم يفعل ذلك لليلة واحدة فقط ثم توقف الليلة التالية أو لليلتين أو ثلاثة مهملاً الليالي التي في الوسط بل أستمر يفعل ذلك كل ليلة، فهو يقول: "أعوِّم في كل ليلة سريري بدموعي أذوِّب فراشي"، مُظهراً غزارة واستمرارية دموعه. تلاقى داود

مع اللّه وحده بينما كان كل إنسان آخر هادئ ومستريح. كانت له العين المستيقظة وهو يبكي وينوح ويعترف بخطاياه الخاصة.

يجب عليك أنت أيضاً أن تصنع لك سريراً مثل هذا. ففضة محيطة بك توقظ غيرة الآخرين وتحرك غضب اللّه عليك، أما الدموع – مثل دموع داود – فهي قادرة أن تُخمِد نيران الجحيم ذاتها.

هل أعرض عليك سريراً آخر؟ أعرض عليك سرير يعقوب، إذ كانت له الأرض المجردة فراشاً، وكان هناك حجراً تحت رأسه، لهذا السبب رأى الصخرة الروحية[١٨] وذلك السلم حيث ملائكة اللّه صاعدة ونازلة عليه (تك ٢٨)، دعونا نوجه عقولنا نحو هذه الأسرّة حتى يمكننا نحن أيضاً أن نرى أحلاماً مثل هذه، لكن إذا تمددنا على أسرة من فضة ليس فقط لن نربح أي متعة بل سيصيبنا الضيق أيضاً، **فعندما تتأمل في وسط الليل أيام وقت البرد القارص كيف أنك تنام على سرير كهذا، بينما ذلك المسكين مطروحاً على كومة من القش بجوار باب بيت الحمّام، مغطياً نفسه بالعيدان، مرتعشاً ومتجمداً من البرد ومقروصاً من الجوع، فحتى ولو كنت الأكثر قساوة من جميع الناس، إلا أنك بلا شك سوف تحكم على نفسك لكونك توفر رفاهية غير ضرورية لذاتك بينما لا تسمح للمسكين حتى بما هو ضروري لمعيشته.**

أنت جندي روحي:

مكتوب:" **ليس أحد وهو يَتَجنَّدُ يرتَبِكُ بأعمال الحياة** " (٢ تي٢:٤)، فأنت جندي روحي، وهذا النوع من الجندية يجعلك لا تنام على سرير من عاج بل على الأرض، ويجعلك لا تتدهن بزيوت معطرة، فتلك اهتمامات أولئك الفاسدين الذين يصاحبون بنات الهوى يومياً، وأولئك الذين يمثلون على المسارح، وأولئك الذين يعيشون في اللامبالاة، يجب أن لا يستنشق الناس منك العطور بل الفضيلة، لا شيء أكثر نجاسة للنفس من ذلك الجسد الذي له هذا الشذا، فإن شذا الملابس ورائحة الجسد المعطر قد تكون علامة على نتانة وقذارة الإنسان

---

[١٨] " كانوا يشربون من صخرة روحيَّةٍ تابعتهم، والصخرة كانت المسيح " (اكو ١٠: ٤).

الداخلي. عندما يهاجم الشيطان النفس ويحطمها بالانغماس في اللذات، ويملأها بالطيش والعبث، فأنه بعد ذلك يمحو هذه الوصمة من على الجسد الناتجة من عمل فساده بواسطة العطور. تماماً كمثل المبتلين بشكل دائم بإفرازات أنفية وزكام يلطخون ملابسهم وأيديهم ووجوههم وهم يمسحون الإفرازات من أنوفهم، هكذا أيضاً نفس الإنسان الشرير تمسح إفرازات الشر من على جسدها بالعطور. من هذا الذي يتوقع شيء حسن ونبيل من شخص رائحته عطور ويصاحب النساء أو بالأحرى بنات الهوى، ويحيا حياة ماجنة؟ **دع روحك تستنشق عطر روحي حتى يمكنك أن تقدِّم منفعة كبيرة لنفسك كما لرفقائك أيضاً.**

ليس هناك شيء أكثر خطراً من التَرف، لنسمع ما يقوله موسى النبي عنه: "أكل يعقوب فشبع والشخص المحبوب طَرِدَ، سَمِنَ وغَلُظ وأكتسي شحماً" (تث ٣٢: ١٥س)، لم يقل موسى أن يعقوب خرج بل قال أن المحبوب طُرِّد، مشيراً كيف صار متعجرفاً وغير منضبطاً، وفي موضع آخر يقول موسى النبي: "متى أكلت وشبعت.. أحترز من أن تنسى الرب إلهك" (تث٨: ١١،١٠)، **فالتَرف في أغلب الأحيان يؤدي إلى نسيان اللَّه، أما أنت أيها الحبيب عندما تجلس على المائدة تذكر أنه يجب عليك أن تذهب من المائدة إلى الصلاة، لذلك أملأ بطنك باعتدال حتى لا يصبح جسدك ثقيلاً جداً، فتستطيع أن تَحني ركبك وتُصلي لإلهك.** ألا ترى كيف أن الحمير تترك المعلف وهي جاهزة للمشي وحمل الأحمال وإنجاز مهمتها؟ أما أنت فعند تركك للمائدة تكون عديم الفائدة وغير نافع لأي نوع من العمل، ألا تتحاشى أن تكون عديم الفائدة هكذا أكثر حتى من الحيوان الأعجم؟! لماذا أقول هذا؟ لأن هذا هو الوقت الذي تحتاج أن تكون فيه صاح ومتزن أكثر من أي وقت آخر[١٩]، **لأن الوقت بعد العشاء هو وقت تقديم الشكر، وذلك الذي يقدم الشكر لا يجب أن يكون سكيراً بل صاح ويقظ، دعونا لا نذهب بعد العشاء إلى النوم بل إلى الصلاة، التي بدونها نصير أقل عقلانية من الحيوانات غير العاقلة.**

---

(١٩) " فلا ننم إذاً كالباقين، بل لنسهر ونصحح. لأن الذين ينامون فبالليل ينامون، والذين يسكرون فبالليل يسكرون. وأما نحن الذين من نهار، فلنصحح " (١تس ٥- ٦).

أعرف أن كثيرين سينتقدون كلامي، ظانِّين أني أقدم عادة جديدة وغريبة لحياتنا، إلا أنني سوف أنتقد العادات الرديئة السائدة علينا الآن بأكثر قوة. علمنا السيد المسيح أن نتجه من المائدة لا للنوم في الفراش بل للصلاة وقراءة الكتب المقدسة، وجعل ذلك واضحاً جداً، إذ أنه بعدما أطعم الجمع الكثير في البرية لم يرسلهم بعد ذلك إلى السرير والنوم بل دعاهم لسماع أقوال مقدسة، فهو لم يملأ بطونهم للتخمة ولا تركهم للسكر، لكن بعدما أرضى حاجتهم قادهم إلى الغذاء الروحي، دعونا نعمل نفس الشيء، **ودعونا نُعَوِّد أنفسنا أن نأكل فقط ما فيه الكفاية للعيش وليس ما فيه الكفاية لتشويش أذهاننا وتثقيل أجسادنا، لأننا لا نعيش لكي نأكل ونشرب بل نأكل لكي نعيش**[٢٠]، منذ البدء لم تُجعَل الحياة للأكل بل جُعِل الأكل للحياة، لكننا نحن كما ولو كنا جئنا إلى العالم لهذا الغرض ننفق كل شيء من أجل الطعام.

لنعود الآن بعظتنا للعازر، حتى نجعل شجبنا لحياة التَرف أكثر حزماً، إذ أن نصيحتنا ومشورتنا تكون أكثر نفعاً ووضوحاً لك عندما ترى أولئك الذين أنكبوا على الأكل الفاخر أُدبوا وعُوقبوا، لا بكلمات بل بأفعال، فبينما كان يعيش الرجل الغنيّ في مثل هذا الشر، متنعماً كل يوم، كاسياً نفسه بأفخر الثياب، كان يَعِدّ لنفسه عقاباً أكثر شدَّة، مشيِّداً لنفسه ناراً أضخم، وجاعلاً عقوبته بلا رحمة وجزاءهُ بلا عفو.

من الجانب الآخر، نجد المسكين مطروحاً على بابه دون أن يتذمر أو يُجدِّف، ودون أن يخور إيمانه، لم يقل لنفسه كما يقول الكثير من الناس: ما هذا؟ ذلك الإنسان يعيش في شر وقسوة ووحشية ومع ذلك يتمتع بكل شيء بوفرة أكثر مما يحتاج، ولا حتى يُقلِقهُ أي هم ذهني أو أي شيء آخر من المشاكل المفاجئة التي يُبتَلى بها بني البشر، لكنه ينال لذة صافية، أما أنا فلا أستطيع الحصول على حصة بسيطة حتى من القوت الضروري، كل شيء يتدفق إليه بغزارة كما من ينبوع بالرغم من أنه يُنفق هذا على الطفيليين والمتملقين والسكارى، أما أنا فأضعف من الجوع، وأرقد هنا أمثولة للمتفرجين، ومصدراً

---

[٢٠] قيل عن سقراط الفيلسوف أنه قال: أن معظم الناس يعيشون لكي يأكلوا أما هو فيأكل لكي يعيش.

للخزي والسخرية، أهذا هو عمل العناية الإلهية؟ هل هناك أية عدالة تراقب أعمال بني البشر؟ لم يقل لعازر أي شيء من هذا القبيل، بل لم يفكر حتى في مثل هذه الأشياء. كيف نتحقق من ذلك؟ من حقيقة أن الملائكة قادته في انتصار، وأجلسته في حضن إبراهيم، فلو كان مُجَدِّفاً ما كان حصُل على التمتع بمثل هذه الكرامات.

تجارب وبلايا لعازر التسعة:

قد يعجب البعض بلعازر المسكين لمجرد احتماله للفقر، لكنني **أستطيع أن أظهر أنه أحتمل تجارب عديدة – تسعة بالعدد – فُرِضَت عليه لا لعقابه بل لجعله أكثر بهاءً.**

تجربة الفقر والمرض (١، ٢):

في المقام الأول: الفقر الذي هو حقاً شيء بغيض - كما يعرف ذلك كل من إختبره - فليست هناك كلمات تستطيع أن تصف مقدار المعاناة التي يتحملها أولئك الذين يعيشون كمتسولين بلا توقف، لكن لم تكن هذه هي مشكلة لعازر الوحيدة بل كان مقروناً بها نير المرض الذي كان على درجة بالغة.

تأمل كيف أظهر السيد المسيح كلاهما في درجاتهما القصوى، فقد أظهر أن فقر لعازر فاق كل فقر آخر في ذلك الوقت عندما قال أن لعازر لم يكن يحصل حتى على أي من الفتات الساقط من مائدة الغنيّ، وأظهر أيضاً أن مرضه بلغ أقصاه كفقره – بحيث لا يمكن أن يمتد إلى درجة أشد – عندما قال أن الكلاب لحست قروحه، فلعازر كان ضعيفاً جداً للدرجة التي لا يستطيع فيها أن يطرد الكلاب بعيداً عنه، كان مطروحاً كجثة حية ناظراً قدومهم بلا قوة لحماية نفسه منهم، كانت أطرافه ضعيفة وهزيلة جداً من المرض ومُتلفة من جرَّاء تجاربه. أرأيت كيف طوَّقا (الفقر والمرض) جسده للدرجة القصوى؟ إن كانت كل تجربة منهما بمفردها مفزعة وغير محتملة، ألا يكون ذلك الإنسان الذي يحتملهما عندما يُنسَّجون معاً رجلاً من فولاذ؟

في أحيان كثيرة يمرض الناس إلا أنهم لا يَفْتقرون لمعيشتهم الضرورية، ويوجد آخرون يعيشون في فقر مدقع لكنهم يتمتعون بصحة جيدة، فيصير الأمر الجيد تعزية في وجود التجربة الأخرى، أما في حالة لعازر كلا التجربتين عملتا معاً.

فقدان لعازر لمن يساعده أو حتى يواسيه (٣، ٤):

لعلك تقول أنه يمكنك أن تُخبرني عن شخص آخر مريض وفقير في نفس الوقت، حسناً لكن هل ذلك الشخص يعيش في مثل هذه الوحدة أيضاً؟، فحتى لو لم يتراءف عليه أحد من عائلته فعلى الأقل سيتحنن عليه أحد من عامة الناس، أما بالنسبة للعازر ففقدانه للمُعزِّين جعل تجربته أكثر شدةً، وأثمر موقعه على باب الرجل الغنيّ في جعل هذا الفقدان ذاته أكثر حدةً، فلو كان تحمل مثل هذه الآلام وأُهْمِل وهو مطروحاً في الصحراء أو في مكان غير مأهول ما كان سيشعر بمثل هذا الضيق الشديد، فلو لم يكن هناك أحد حوله لكانت عزلته حثته أن يتحمل – ولو ضد رغبته – ما يحدث له، أما لعازر فكان مطروحاً وسط مجتمع السكارى وصُنَّاع المرح لكنه لم يحصل منهم حتى على أي اهتمام ضئيل، زاد ذلك في حدة إحساسه بالألم وبالتجارب المماثلة لتجاربه.

حقاً لو كان وحده بعيداً، ما كان ممكناً له حتى أن يسمع كل هذا الصخب الصادر من أشخاص محيطين به لكنهم غير راغبين في تقديم يد المساعدة. هذه كانت حالته في ذلك الوقت، لم يكن لديه أي شخص لمواساته بكلمة أو لإراحته بأي عمل، لا صديق ولا جار ولا قريب ولا حتى أي متفرج، إذ كانت عائلة الرجل الغنيّ كلها فاسدة.

كان يرى الغنيّ يتمتع بالرغم من خطاياه (٥، ٦):

بالإضافة إلى ذلك، منظر شخص آخر يحيا في رفاهية وضع عليه حِمل إضافي من المعاناة، ليس لكونه حاسد وشرير، بل لأننا جميعاً عادة نرى محنتنا الخاصة بصورة أكثر حِدَّةً عند مقارنتها بازدهار الآخرين.

وكان هناك شيء آخر يزيد من ألم لعازر، إذ تفاقمت محنته ليس فقط بمقارنة بلاياه الخاصة مع رخاء الرجل الغنيّ، بل أيضاً برؤية الرجل الغنيّ

وهو يتنعم من كل الوجوه بالرغم من كونه يحيا في قسوة ووحشية، بينما هو يتحمل آلاماً بالغة بالرغم من تمسكه بالصلاح والفضيلة، لهذا تحمل ضيقاً لا عزاء له، فلو كان الرجل الغنيّ عادلاً أو صالحاً أو جديراً بالإعجاب أو مُحمَّلاً بكل فضيلة ما كان رخاؤه يُحزن لعازر، لكن لكونه عاش في الشر، وبلغ شره أقصاه، وكان يُظهر مثل هذه الوحشية، وكان يعامله كعدو، وجاز من جانبه كأنه حجر لا إنسان بوقاحة وبلا رحمة، وبالرغم من كل ذلك تمتع بمثل هذا الثراء، تأمل كيف كانت هذه الأمور المؤلمة تَغْمُر نفس هذا المسكين كما بموجات متتالية. تأمل في ما كان يشعر به لعازر وهو يرى الطفيليين والمتملقين والخدم ذهاباً وإياباً، داخلين وخارجين في نشاط، يضربون الأرض بأرجلهم ويصيحون ويشربون ويمارسون كل أنواع الفسق. وكأن لعازر قد جاء من أجل هذا الغرض لكي يكون شاهداً على تَرف الآخرين، راقداً عند الباب وهو على قيد الحياة فقط بما فيه الكفاية ليكون قادراً على إدراك محنته الخاصة، متحملاً تحطم سفينته مع أنه على مشارف الميناء، متعذباً بالعطش الأكثر مرارة مع أنه على مقربة من الينبوع.

لم يكن أمامه مثالاً آخر يقتدي به (٧):

هل أذكر تجربة أخرى بالإضافة لما سبق؟ لم تكن هناك فرصة أمامه أن يلاحظ لعازر آخر مثله، فنحن من جانبنا نستطيع أن نكسب راحة كافية ونـنعم بتعزية بمجرد النظر للعازر حتى لو كنا نعاني من مشاكل عديدة، إذ أن تواجد الرفقاء في الآلام – سواء إن كان في الواقع أو في الرواية – يجلب تعزية كبيرة للمتألمين، لكن لعازر لم يستطع أن يبصر أي شخص آخر يتحمل نفس تجاربه، بل غالباً لم يسمع حتى عن أي شخص من بين أجداده تحمل نفس المعاناة، هذا فيه الكفاية ليوقع الكآبة في نفس أي إنسان.

لم يكن أمامه رجاء القيامة (٨):

من الممكن أيضاً أن نضيف تجربة أخرى إلى ذلك، لم يكن يستطيع أن يعزي نفسه مترجياً القيامة العتيدة، فهو أعتقد أن الوضع الراهن قد أغلق عليه

في الحياة الحاضرة، إذ أنه كان واحد من الذين عاشوا قبل عهد النعمة، أما الآن في وقتنا الحاضر قد كُشِف لنا الكثير جداً من المعرفة الإلهية: الرجاء المفرح في القيامة، والعقوبة التي تنتظر الأشرار والمكافأة المُعدَّة للأبرار، وبالرغم من ذلك يوجد بعض الأشخاص هكذا وضعاء وتعساء لدرجة أنهم لا يستقيمون حتى بواسطة هذه الأمور المنتظرة، أما بالنسبة للعازر فما الذي كان يشعر به وهو محروم حتى من هذه المرساة الثابتة؟ إذ لم يكن في إمكانه تذوق مثل هذه الحكمة السامية لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لمثل هذه التعاليم.

افتراء الناس عليه وتشويه سمعته (٩):

هناك شيء آخر بالإضافة إلى هذه التجارب، قد أُفْتُرِى على سمعته من قبل الناس الحمقى، لأن معظم الناس عندما يرون شخصاً في جوع ومرض عضال، وفي درجات قصوى من البلايا، لا يسمحون له حتى بسمعة جيدة بل يحكمون على حياته من محنته، ويظنون أنه يعاني مثل هذا الشقاء بسبب شروره، يقولون الكثير من مثل هذه الأقوال بعضهما لبعض، أقوال بالفعل حمقاء لكنهم مع ذلك يرددونها، على سبيل المثال: لو كان هذا الإنسان عزيزاً عند اللَّه ما كان تركه هكذا يعاني من الفقر والضيقات الأخرى.

هذا ما حدث مع أيوب الصديق وبولس الرسول، للأول قالوا:"إن امتحن أحد كلمةً معك، فهل تستاء؟ ولكن من يستطيع الامتناع عن الكلام؟ ها أنت قد أرشدت كثيرين، وشدَّدت أيادي مرتخيةً. قد أقام كلامك العاثرَ، وثبَّتَّ الرُكب المرتعشة! والآن إذ جاء عليك ضجرت، إذ مَسَّك ارتعت. أليست تقواك هي مُعتَمَدك ... اذكر: من هلك وهو بريءٌ، وأين أُبيد المستقيمون؟" (أي ٤: ٢-٧)، المقصود بهذا الكلام شيء مثل هذا: لو كنت قد عملت أعمالاً حسنة ما كنت ستعاني مما تعانيه، لكنك تدفع عقوبة خطيئتك ومخالفتك. هذا هو ما أحزن أيوب الصديق بالأكثر.

والبرابرة قالوا لبولس الرسول نفس الشيء أيضاً عندما رأوا الأفعى معلقةً بيده، لم يتخيلوا شيئاً حسناً عنه بل ظنوه واحد من أولئك الذين ارتكبوا أقصى أنواع الشرور، هذا واضح مما قالوه: "لابد أن هذا الإنسان قاتل، لم يَدَعْهُ العدل

يحيا ولو نجا من البحر" (أع ٢٨: ٤)، نحن أيضاً كثيراً ما نصنع بمثل هذه العبارات الحمقاء صخباً لاذعاً.

بالرغم من أن التيارات كانت عظيمة جداً، وصدمته بشكل متصل، إلا أن سفينته لم تغرق، بل تشدد بالحكمة – كمثل ندى يُنعِّش إنساناً مضطجعاً في فرن بشكل مستمر – لم يقل في نفسه أي شيء مما يقوله عامة الناس: إن وقعت عقوبة على هذا الرجل الغنيّ عندما يرحل للعالم الآخر تكون حياته تعادل – واحدة مقابل واحدة – لكن إن تنعم في الآخرة أيضاً بنفس الامتيازات التي حصل عليها في الحاضر يكون قد كسب أثنين مقابل لا شيء، ألا تستخدمون أنتم عامة الشعب هذا الأسلوب في السوق، وتحضرون لغة المسارح وحلبة السباق إلى الكنيسة؟ أنا أستحي حقاً وأخجل من طرح هذا الأسلوب أمامكم إلا أنه من الضروري أن نقول هذا حتى نحرركم من المرح المنافي للأخلاق والخزي والضرر الناتج من مثل هذه الأقوال، يردد الناس هذه الأقوال في أغلب الأحيان مع الضحك، إلا أن هذا الضحك يخص الوسائل الشريرة التي للشيطان، الذي بواسطة عبارات هزلية يجلب تعاليم فاسدة إلى داخل حياتنا. يستخدم الكثير من الناس هذه العبارات بشكل مستمر في الورش والأسواق والمنازل: هذا يدل على عدم الإيمان الشديد، بل هوس حقيقي ونزعة طفولية، فكونك تقول: "لو أن الشرير عوقب بعد الموت" ولا تكون مقتنعاً بلا أدنى شك أن الأشرار سيعاقبون، هذه هي سمة غير المؤمنين الشكاكين، ومجرد تفكيرك هكذا: "لو حدث (وهو لن يحدث) أن الشرير تنعم بمكافأة مساوية مع البار" يدل على درجة كبيرة من الحماقة.

حياة زائلة كحلم وأخرى أبدية:

بماذا تفكر أخبرني: لو رحل الرجل الغنيّ وتمت معاقبته هناك تكون حياته واحدة مقابل واحدة، كيف يمكنك أن تتصور ذلك؟! كم عدد السنوات تفترض أنه تمتع فيها بأمواله في هذه الحياة؟ هل نفترض مائة؟ مستعد أن أفترض مائتين أو ثلاثة أو ضعف ذلك أو حتى ألف إن رغبت – مع أن ذلك مستحيل إذ هو مكتوب: "أيام سنينا هي سبعون سنة، وإن كانت مع القوة فثمانون سنة" (مز٩٠: ١٠) –

لكن دعنا نفترض ألف، بالطبع لا تستطيع أن تريني حياة حاضرة أبدية بلا نهاية كحياة الأبرار في السماء. أخبرني لو رأى إنسان ما في مدة مائة سنة أحلاماً حسنة في ليلة واحدة، وتمتع فيها برفاهية بالغة، هل يمكنك القول في حالته: "واحدة بواحدة" وتجعل ليلة واحدة من الأحلام معادلة لمائة سنة؟ لا تستطيع ذلك بالطبع، هكذا يجب عليك أن تفكر بنفس الطريقة عن الحياة الآتية، **كمثل حُلم واحد مقابل مائة عام كذلك الحياة الحاضرة أمام الحياة الأخرى - أو بالأحرى الفرق أعظم من ذلك بكثير - وكمثل قطرة صغيرة أمام البحر الغير محدود كذلك يكون الألف عام أمام ذلك النعيم والمجد الأبدي**. ماذا يمكن أن يقال أكثر من هذا؟، إذ أنه نعيم بلا حدود ولا يعرف نهاية، وبقدر ما تختلف الأحلام عن الحقيقة كذلك تختلف هذه الحالة الحاضرة عن الحالة الآتية.

محكمة الضمير:

بالإضافة إلى ما سبق، أولئك الذين يرتكبون المعاصي ويعيشون في الخطيئة - حتى قبل العقاب الآتي - يعاقبون في هذه الحياة. لا تخبرني بخفة عقل عن ظاهر ذلك الذي يتمتع بمائدة مُترَفة ويرتدي الثياب الحريرية، ويأخذ معه حشد من العبيد وهو يتبختر في السوق، بل أكشف عن ضميره، وسترى بالداخل اضطرابات عظيمة ناتجة من الخطايا، وخوف مستمر وثورة وارتباك، فعقله يقترب من عرش ضميره الملوكي وكأنه في قاعة محكمة، ويجلس ضميره كحاكم مقدماً حججاً كما يحدث في المحاكمة العامة، مشتكياً ومعذباً عقله بسبب ذنوبه، باكياً بصوت مرتفع بدون شاهد غير اللَّه، الذي وحده يعرف كيف يرى هذه الدراما الداخلية.

الإنسان الزاني على سبيل المثال حتى ولو كان غنياً بإفراط وحتى لو كان ليس هناك من يتهمه إلا أنه لا يتوقف عن اتهام نفسه من الداخل. **اللذَّة قصيرة الأمد لكن الألم الداخلي يدوم طويلاً**، إذ يحيطه خوف وارتجاف مع شك وصراع، يخاف الأزقة الضيقة، يرتجف حتى من الظلال ذاتها بل وأمام خدامه الذين يخصونه، أمام أولئك الذين على معرفة بأفعاله وأمام أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عنه، أمام المرأة ذاتها التي أخطأ معها وأمام الزوج الذي

أهانه، يطوف حاملاً معه مشتكياً لاذعاً أي ضميره، فهو مـدان بإدانـة ذاتيـة ولا يستطيع أن يرتاح ولو قليلاً، يرى على الدوام صورة خطيئته أمامه سـواء كان على الفراش أو المائدة، في السوق أو في البيت، سـواء كـان بالليـل أو بالنهار، بل يراها حتى في أحلامه ذاتها، يحيا حياة قايين متأوهاً ومرتجفاً علـى وجه الأرض، وبداخله ناراً مُتقدةً على الدوام، حتى وإن كان لا أحـد يعـرف بخطيئته.

نفس الشيء يحدث أيضاً مع أولئك الذين يزاولون السرقة والاحتيال، وللسكارى، ولكل إنسان يحيا في الخطيئة. لا توجد وسيلة لرشوة هذه المحكمة (الضمير). فإن كنا لا نسعى نحو الفضيلة سنشقى، وإن كنا نسعى نحو الخطيئة سنتألم عندما تتوقف لذتها.

دعنا لا نحكم على الإنسان الشرير الذي يتمتع بالغنى هنا وعلى البار الذي يُكافأ في الحياة الأخرى قائلين: "واحدة مقابل واحدة" بل "أثنين مقابل لا شـيء"، لأن البار في كلا الحياتين مزود ببهجة كبيرة أما الإنسـان الشـرير والطمـاع فيُعاقب هنا وهناك، فهو يعاقب حتى في الحياة الحاضرة بتوقع العقوبـة الآتيـة وبالشك الرديء من كل شخص، ويعاقب من نفس واقع الخطيئة بإفساد روحـه، وبعد الرحيل من هنا يعاقب بعقوبة قاسية، أما البار نجده على النقيض فحتى ولو تحمل تجارب عديدة هنا إلا أنه مُعضَّد بالآمال الحسنة، وحـائز علـى بهجـة طاهرة، آمنة ودائمة، وفي الحياة الأخرى سترحب به الكثير من الأمور المفرحة تماماً كما رحبت بلعازر. **لا تخبرني عن إصابته بالقروح بل تأمل كيـف أنـه حائز من الداخل على روح ثمينة جداً أغلى من الذهب، وليس روحه فقط بـل وجسده أيضاً، لأن بهاء الجسد ليس في امتلاءه أو نشاطه بل في قدرته علـى تحمل مثل هذه التجارب القاسية. مثل هذه الجروح في الجسد لا تجعل الإنسان كريهاً بل الذي يجعله كذلك هو وجود العديد من القروح فـي الـروح بـدون العناية بها، هكذا كانت روح الرجل الغنيّ مليئة بالقروح من الـداخل، وكمـا لحست الكلاب جروح المسكين كذلك أيضاً لحست الشـياطين خطايـا الرجـل الغنيّ، وكما عاش المسكين في جفاف من أي وفرة كذلك عـاش الغنـيّ فـي جفاف من أي نوع من الفضيلة.**

من ندعوه محظوظاً؟:

لنتزود إذاً بالحكمة عند معرفة كل هذا، **ولا نقل: لو كان اللَّه يحبه ما كان يسمح له بأن يصير فقيراً، لأن هذا السماح ذاته هو الدليل الرائع على محبة اللَّه: "لأن الذي يُحِبُّهُ الرب يؤَدِّبه، ويَجلِدُ كل ابن يَقبَلُهُ"** (عب ١٢: ٦، أم ٣: ١٢) وفي موضع آخر مكتوب: " يا ابني إن أقبلت لخدمة الرب فأعدد نفسك للتجربة. أرشد قلبك وأصبر ولا تكن قلقاً في وقت الشِدَّة" (سي٢: ١-٢).

لذلك لنرفض أيها الأحباء من بيننا هذه الأفكار الطائشة وهذه العبارات السوقية، " لا تخرج كلمة ردية من أفواهكم ... لا القباحة، ولا كلام السَّفاهَةِ " (أف ٤: ٢٩، أف ٥: ٤)، ليتنا ليس فقط لا نتفوه بهذه الكلمات نحن أنفسنا بل حتى إن رأينا آخرين يرددونها نسكتهم ونقاومهم بشدة ونوقف ألسنتهم الوقحة.

أخبرني إن رأيت زعيم عصابة يطوف في الطرقات، ويكمن لعابري السبيل، ويسرق من المزارع، ويطمر ذهب وفضة في الجحور والكهوف، ويجمع قطعان كثيرة في مخابئه، حائزاً على حصة كبيرة من الملابس والعبيد من جراء هذا التجوال، قُل لي: هل تدعوه محظوظاً بسبب ثروته هذه أم تدعوه تعيساً بسبب العقوبة التي تنتظره؟ هو في الواقع لم يقبض عليه بعد، ولم يُسلم إلى القاضي، ولم يُطرح في السجن، ولم يشتكي عليه أحد بعد، وقضيته لم يقترع عليها بعد، لكنه يأكل ويشرب بإفراط، ويتمتع بوفرة كبيرة، لكننا بالرغم من ذلك لا ندعوه محظوظاً من أجل خيراته الحاضرة المرئية بل ندعوه بائساً بسبب آلامه المتوقعة المستقبلية.

يجب أن تفكر بنفس الطريقة عن أولئك الأغنياء والجشعين، هم نوع من اللصوص يكمنون في الطرقات، يسرقون عابري السبيل، ويطمرون بضائع الآخرين في منازلهم الخاصة بدل الجحور والكهوف، لذلك يجب أن لا نحسبهم محظوظين بسبب ما عندهم بل بائسين بسبب ما سيأتي عليهم، بسبب قاعة المحكمة المخيفة، والحكم الذي لا يرحم، والظلمة الخارجية التي تنتظرهم. في الواقع كثيراً ما يهرب اللصوص من أيدي الناس (ولا تتم معاقبتهم)، إلا أننا بالرغم من معرفتنا لهذا الأمر نتمنى لأنفسنا - بل حتى لأعدائنا أيضاً - تجنب

مثل هذه الحياة بيسرها الملعون. أما فيما يتعلق بالحكم الإلهي، لا نستطيع أن نقول هذا عنه، لأنه لن يهرب أحد منه بل كل من يعيش بالاحتيال والسرقة سوف يجتذب لنفسه العقوبة الأبدية، تماماً كذلك الرجل الغنيّ.

ليتنا إذاً أيها الأحباء ندعو الرجل الفاضل محظوظاً لا الرجل الغنيّ، ولا ندعُ الرجل الفقير بائساً بل الرجل الشرير، ليتنا لا نأخذ بعين الاعتبار ما هو حاضر بل ما هو سيأتي، ولنمتحن لا الثياب الخارجية للشخص بل ضميره الداخلي، ولنسعى وراء الفضيلة والفرح الناتج من الأعمال الصالحة، ولنحاكي لعازر سواء إن كنا فقراء أو أغنياء، لأن هذا الرجل لم يحتمل تجربة واحدة أو اثنين أو ثلاثة بل الكثير إذ أنه:

١- كان فقيراً.

٢ - كان مريضاً.

٣ - لم يكن لديه أحد يساعده.

٤ - مكث أمام منزل كان من الممكن أن يخفف عنه كل مشاكله إلا أنه لم يُمنَّح أي كلمة تعزية.

٥ - كان يرى الرجل الذي يتجاهل وجوده يتمتع بكل رفاهية.

٦ - وليس فقط يتمتع بالرفاهية بل يعيش مع ذلك في الخطيئة بلا تحمل أي نوع من المعاناة.

٧ - لا يستطيع أن يعزي نفسه بالنظر إلى أي لعازر آخر.

٨ - لا يستطيع أن يعزي نفسه بأي حكمة عن القيامة.

٩- كل هذه التجارب التي ذكرت، حَصُل أيضاً على سمعة سيئة في المجتمع بسبب بلاياه، ليس ليومين أو ثلاثة بل وجد نفسه في هذه الحالة حياته كلها، على عكس حالة الرجل الغنيّ.

أي عذر نجده لأنفسنا عندما نشاهد هذا الرجل محتملاً كل هذه البلايا بكل الشجاعة بينما لا نستطيع أن نحتمل نحن حتى نصفها؟ لا يستطيع المرء بأية حال أن يعرض أو يذكر أي شخص آخر تحمل كل هذه البلايا الصعبة، **لهذا السبب وضع السيد المسيح لعازر أمامنا حتى يمكننا نحن – مهما كانت المشاكل التي تصادفنا – أن ننال راحة وتعزية كافيه من حكمته وصبره**

بمشاهدتنا فيه درجة أكبر من البلايا، فهو يحتل موقعاً فريداً كمعلم للعالم أجمع، لجميع الذين يعانون من أي محنة مهما كانت، مقدماً نفسه ليراه الكل، ومتجاوزاً الكل في حدّة مشاكله.

من أجل كل هذا، لنعطي الشكر لله المحب لبني البشر، ولنجمع لأنفسنا فوائد كثيرة من هذه القصة، ولنتكلم عن لعازر بشكل مستمر في المجالس والبيوت والأسواق وفي كل مكان، ولنفحص بكل عناية كل الغنى الحاضر في هذا المثل، لكي نعبر خلال الضيقات الحاضرة بلا حزن، ونحقق الآمال العظيمة الآتية – لعلنا نوجد جميعاً مستحقين لها – بالنعمة ومحبة الرب يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس المجد والكرامة والسجود، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثانية

المعنى الحقيقي للفقر والغِنى

" لأنـــك تقـول: إنـــي أنـــا غَـــنيٌّ
وقـد استغنيتُ، ولا حاجـة لـي إلى شـيءٍ،
ولستَ تَعلـمُ أنـك أنـت الشَّـقيُّ والبَـئسُ
وفقـــــيرٌ وأعمـــــى وعُريـــــانٌ
أُشـيرُ عليـك أن تشـتري منِّـــي ذهبـاً
مُصَـــفًّى بالنـــار لكـــي تَســتَغني ".

(رؤ ٣: ١٧-١٨)

العظة الثانية

المعنى الحقيقي للفقر والغنى

لعازر كقدوة ومثال:

عندما قدمت العظة الأولى عن لعازر أعجبت بغيرتكم الحسنة لأنكم استحسنتم صبر المسكين واشمأزيتم من قسوة ووحشية الرجل الغنيّ، هذا يدل على ميولكم الحسنة نحو الفضيلة، لأنه حتى ولو كنا لا نسعى نحو الفضيلة بل نمدحها فقط، إلا أننا من الممكن أن نحققها فيما بعد، وحتى إن كنا لا نتجنب الشر بل ننتقده فقط، إلا أننا من الممكن أن ننجو منه فيما بعد، ونظراً لأنكم استقبلتم العظة السابقة بايجابية شديدة سنواصل اليوم حديثنا عن لعازر.

في المرة السابقة شاهدتم لعازر على باب الرجل الغنيّ أما اليوم فستروه في أحضان إبراهيم، رأيتموه قبلاً والكلاب تلحس قروحه لتروه الآن والملائكة تحمله في انتصار، رأيتموه قبلاً في فقر لتروه الآن في تنعم، رأيتموه قبلاً في جوع لتروه الآن في وفرة عظيمة، رأيتموه قبلاً وهو يُجاهد في حلبة السباق لتروه الآن مكللاً بالغلبة، رأيتم معاناته قبلاً لتروا الآن مكافأته – سواء إن كنتم أغنياء أو فقراء – حتى يتوقف الغنيّ من اعتبار الثروة تستحق أي شيء من دون الفضيلة، ويتوقف الفقير من اعتبار الفقر شراً في حد ذاته.

هذا الرجل مُقدَّم لكم جميعاً كمعلم، لأنه إن كان لم يتذمر وهو فقير فأي عذر يكون لأولئك الذين يتذمرون وهم أغنياء؟ وإن كان قد قدَّم الشكر في الجوع والبلايا الكثيرة أي عذر يكون لأولئك الذين لا يحاولون بلوغ نفس الفضيلة وهم يتمتعون بالوفرة؟ وعلى نفس النمط أيضاً، أي عذر يكون لدى الفقراء الذين يدَّمدمون ويتذمَّرون لأنهم يستعطون معيشتهم، عندما يرون ذلك الإنسان الذي عاش بشكل متواصل في جوع وفقر ووحدة ومرض في بيت الرجل الغنيّ، مرفوضاً من الجميع، وليس أمامه أي شخص آخر تحمل نفس معاناته، ومع كل ذلك أظهر مثل هذه الحكمة؟

معنى الغنى والفقر:

ليتنا نتعلم من ذلك الإنسان أن لا ندعو الغنيّ محظوظاً أو الفقير بائساً، لأن **الغنيّ حقاً ليس هو الشخص الذي يجمع لنفسه ممتلكات كثيرة بل هو الشخص الذي يحتاج بضعة ممتلكات قليلة، والإنسان الفقير حقاً ليس هو الشخص الذي ليس عنده ممتلكات بل هو الشخص الذي عنده رغبات كثيرة. يجب علينا أن نعتبر ذلك هو تعريف الفقر والغنى، لذلك إذا رأيت شخصاً جشعاً لامتلاك أشياء كثيرة يجب أن تعتبره أفقر الكل حتى ولو حاز على أموال الجميع. ومن الناحية الأخرى، إذا رأيت شخصاً لا يحتاج إلا القليل يجب أن تحسبه أغنى الكل حتى ولو لم يمتلك شيئاً.** لأننا قد تعودنا الحكم على الفقر والغنى بحسب حالة العقل وليس بحسب مقدار ممتلكات الشخص. وكما لا ندعو الرجل الظامئ بشكل مستمر شخص ذو صحة جيدة – حتى ولو تمتع بوفرة كبيرة أو عاش بجانب الأنهار والينابيع (فما المنفعة من وفرة المياه إن كان العطش غير قابل للإخماد؟) – كذلك أيضاً في حالة الأغنياء، يجب أن لا نعتبر مطلقاً أولئك الظمآنين والمتلهفين بشكل مستمر على حيازة ممتلكات الآخرين أشخاص أصحاء، ولا نظن أنهم يتمتعون بأي غنى، لأنه إن كان أحد لا يستطيع السيطرة على جشعه الذاتي كيف يمكنه أن يكون ذا وفرة في أي وقت، حتى وإن استولى على ممتلكات الجميع؟ أما هؤلاء القانعين بما عندهم والراضين عن ممتلكاتهم الخاصة، الذين ليست أعينهم موجهة نحو ممتلكات الآخرين، يجب أن يُعتبروا أغنى الكل – حتى ولو كانوا أفقر الكل – **لأن الإنسان الذي ليس عنده احتياج لما يملكه الآخرين بل سعيد بشبعه الذاتي هو الأكثر وفرة من الجميع.**

روح الإفراز وخداعات الشياطين:

قال السيد المسيح: "فمات المِسكين وحملته الملائكة" (لو١٦:٢٢)، أودُ في هذه النقطة أن أنزع مرض بغيض من نفوسكم، إذ يعتقد العديد من البسطاء أن أرواح الذين يموتون نتيجة لموت عنيف (قتل أو غرق أو حرق أو ما شابه) تصير شياطين. هذا أمرُ مستحيل حدوثه، مستحيل تماماً، إذ ليست أرواح الذين يموتون موتاً عنيفاً تصير شياطين بل أرواح الذين يعيشون في الخطيئة: طبيعتهم

البشرية لا تتغير لكن طريقة حياتهم تحاكي رداءة الشياطين. أوضح السيد المسيح ذلك مشيراً إلى اليهود عندما قال: " أنتم من أب هو إبليس" (يو٨: ٤٤)، دعاهم أولاد إبليس ليس بكونهم تحولوا إلى طبيعة إبليس بل لكونهم عملوا أعماله، لذلك أضاف: "وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا"، وبطريقة مماثلة قال يوحنا: "يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم : لنا إبراهيم أباً " (مت ٣: ٧-٩)، فالكتاب المقدس كثيراً ما يتكلم هكذا عن النسب، غير قاصداً النسب الطبيعي بل ذلك الانتساب الذي للفضيلة أو للشرور، فيدعو الشخص ابن وأخ ذلك الذي يشترك معه في صفاته.

لكن لماذا أدخل الشيطان هذا التعليم الشرير؟ أدخله محاولة منه لمحو مجد الشهداء، فالشهداء يموتون موتاً عنيفاً، فعل الشيطان ذلك رغبة منه في إشاعة الشكوك السيئة ضدهم، لكنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية لفعل ذلك، إذ أنهم مازالوا يحتفظون بمجدهم اللائق، لكنه بدلاً من ذلك أنجز شيئاً آخر أكثر إيذاءً، إذ أنه بواسطة هذه التعاليم أقنع السحرة الذين يخدمونه بذبح أجساد أطفال كثيرة على أمل أن يصيروا شياطين فيخدمونهم في المقابل. لكن هذا الأمر مستحيل حدوثه، مستحيل تماماً.

لكن ماذا عن حقيقة قول الشياطين أحياناً: "أنا روح هذا الراهب أو ذاك"، أني لا أصدق هذا الكلام لهذا السبب ذاته: لكون الشياطين هي التي تقول ذلك، لأنهم يخدعون أولئك الذين ينصتون إليهم، لذلك نرى ق. بولس يسكتهم بالرغم من أنهم كانوا يقولون الحقيقة خشية أن يستغلوا الفرصة - حالما جعلوا أنفسهم أهل ثقة - ويخلطوا الأكاذيب بالحقيقة، فعندما قالوا: "هؤلاء الناس هم عبيد اللّه العليّ، الذين ينادون لكم بطريق الخلاص" (أع١٦: ١٦-١٧)، التفت بولس إلى روح العرافة وانتهره وأمره بالخروج منها. أي إثم نجد في قوله: "هؤلاء الناس هم عبيد اللّه العليّ"؟، (لا نجد) لكن بما أن السواد الأعظم من البسطاء لا يعرفون كيف يميزون بين الأشياء التي تقولها الشياطين، أوقفهم ق. بولس بشكل نهائي لئلا يعتقد الناس فيهم، وكأنه يقول للشيطان : "أنت بلا كرامة، ليس لك الحق في الكلام، كن صامتاً، كن مُكمماً، ليس لك الحق في التبشير

لأن هذا الامتياز يخُص الرسل، لماذا تنتحل ما ليس لك؟ أسكت، فقد فقدت كرامتك".

كذلك السيد المسيح أيضاً عندما قال له الشيطان: "أنا أعرفك مَنْ أنت" (مر ١:٢٤، لو ٤:٣٤) انتهره بلهجة شديدة، معلماً إيانا أن لا نثق في روح شرير قط، حتى وإن قال شيئاً صحيحاً. **لنتعلم من هذا أن لا نأتمن الشيطان مطلقاً، بل نتحاشاه ونتجنبه حتى وإن نطق بأقوال صحيحة.**

نستطيع أن نتعلم بكل دقة التعاليم الصحيحة والمفيدة ليس من الشياطين بل من الكتاب المقدس، الذي يعلمنا أنه ليس ممكناً للروح التي تترك الجسد أن تقع تحت قهر وطغيان الشياطين، لنسمع ما يقوله ق. بولس: " الذي مات قد تبرَّأ (تحرَّر) من الخطيئة" (رو ٦:٧)، أي لا يعود يخطئ، لأنه إذا كان الشيطان لا يستطيع أن يستعمل القوة مع الروح وهي ساكنة في الجسد فمن الواضح أنه لا يستطيع فعل ذلك أيضاً بعد مغادرتها الجسد.

قد يتساءل أحد: كيف إذاً يخطئ الناس إن لم تكن هناك قوة جبرية؟ يخطئ الناس عن قصد وبشكل إرادي، مُسلِّمين ذواتهم للخطيئة لا عن اضطرار أو إكراه. هذا تم توضيحه بواسطة أولئك الذين تغلبوا على كل حيل الشيطان، فالشيطان مثلاً لم يكن قوياً بما فيه الكفاية لكي يقنع أيوب بلفظ كلمة تجديف بالرغم من استفزازه البشع.

واضح إذاً أننا نملك القدرة على رفض نصيحة الشيطان أو الانسياق وراءها، نحن لا نخضع لأي إلزام أو إجبار من قبله، وهذا واضح أيضاً من مثل لعازر الذي نتحدث عنه.

الروح وخروجها من الجسد:

إن الأرواح عندما تترك أجسادها لا تتباطأ هنا بل تقتاد فوراً. لنسمع ما يقوله السيد المسيح: "فمات المسكين وحملته الملائكة" (لو ١٦:٢٢)، ليس فقط أرواح الأبرار بل أرواح الأشرار أيضاً تقتاد بعد الموت، هذا واضح من قصة الرجل الغنيّ الآخر الذي أخصبت كورته ففكر في نفسه قائلاً: "ماذا أعمل ... أهدِمُ مخازني وأبني أعظم" (لو١٢: ١٧-١٨). ليس هناك تصرف أكثر رداءة من

هذا التصرف. **حقاً قد هدم هذا الإنسان مخازنه لأن المخازن الآمنة ليست في الجدران بل في بطون الفقراء، فذاك الذي تجاهل هذه البطون ليس بحاجة أن يقلق نفسه بشأن الجدران.** ماذا قال له الله؟ "يا غبي هذه الليلة تُطلب نفسك منك". أترى، هنا يقول "تطلب نفسك منك" بينما في مثل لعازر يقول "حملته الملائكة". **واحد يُقْتاد كأسير وآخر يُحمَّل على الأكتاف كظافر، تماماً كالمحارب في الحلبة الذي يتقبل العديد من الإصابات ويتناثر الدم عليه، ثم بعد ذلك يتم تتويجه بأكاليل الظفر، فيحَيُّونه المشجعين الواقفين أمام الحلبة بالهتافات العالية، ويقتادونه لمكان سكناه مُعجَّبين ومصفقين وصائحين، هكذا أيضاً اقتادت الملائكة لعازر. أما الغني فطُلبت نفسه منه بواسطة بعض القوات المُخيفة** التي ربما أرسلت فقط لهذا الغرض، إذ أن الروح لا ترتفع بشكل آلي (أوتوماتيكي) للحياة الأخرى، فهذا غير ممكناً، لأنه إن كُنَّا عند الانتقال من مدينة إلى مدينة أخرى نحتاج إلى مُرشد، فكم بالأكثر تحتاج الروح – التي بزغت من الجسد – إلى مُرشدين لقيادتها في حركتها نحو الحياة الآتية.

إن النفس وهي على وشك الخروج من الجسد كثيراً ما تستيقظ ثم تنهار مرة أخرى نحو الهاوية مرتعدة من الخوف، فوعي النفس بذنوبها ينخسها خصوصاً في ذلك الوقت التي توشك فيه على الانقياد لتقديم الحساب أمام تلك المحكمة الرهيبة. آنذاك لو كان أي شخص قد أذنب بسرقة أو طمع أو لعن أحد ما أو أبغض شخص بدون سبب أو ارتكب أي خطأ آخر، تعود إلى الوعي كل هذه الذنوب وتتزاحم وتقف أمام أعيننا وتوخز ضمائرنا. تماماً كالمحبوسين في السجن الذين يعيشون دائماً في اكتئاب وضيق، أما في ذلك اليوم خاصة الذي ينقادون فيه إلى القاضي ويقفون أمام أبواب قاعة المحكمة يكتئبون فيه بالأكثر، ويقشعرون من الخوف إذ يسمعون صوت القاضي من الداخل، ويكونون في حالة ليست أفضل من حالة الموتى. كذلك أيضاً تكون الروح في حزن وقلق كبير في الوقت الفعلي للخطيئة، أما في ذلك اليوم وهي على وشك الخروج والانقياد من هذا العالم تكون في حزن وقلق أكثر.

كن مستعداً ليوم الرحيل:

أتنصتون هكذا في صمت؟ أنا أسعد جداً بصمتكم أكثر من التصفيق، لأن التصفيق والمديح يجعلونني أكثر شهرة أما هذا الصمت يجعلكم أنتم أكثر استقامة. أعرف أن كلماتي موجعة إلا أنني لا أستطيع إخباركم عن مقدار المنفعة العظيمة التي تحتويها. **لو كان لدى الرجل الغنيّ شخص ما يعطيه هذا النوع من النصيحة بدلاً من المتملقين الذين كانوا يقدمون له دائماً ما يريد سماعه، الذين جذبوه إلى تلك المعيشة المُترَفة، ما كان قد سقط هكذا في ذلك الجحيم، ولا قاسى من هول ذلك العذاب، ولا ندم هكذا في وقت متأخر جداً طالباً الراحة، لكن نظراً لأن جميعهم رتبوا أحاديث تهدف لإمتاعه، سلموه إلى النار.**

أود ولو يمكننا الوعظ بشكل مستمر هكذا عن الجحيم، فالكتاب يقول: "في جميع أعمالك أذكر أواخرك فلن تخطأ أبداً" (سي ٧:٤٠)، وأيضاً: "هَيِّئ أعمالك لأجل الرحيل" (أم ٢٤:٢٧ س)، فأجعل كل شيء جاهز لأجل الطريق. إن كنت قد اختلست شيئاً من أي إنسان أرجعه وقُل كما قال زكا: "أرُد أربعة أضعاف"، إن كنت قد خَدَعت أي إنسان في شيء ما بالمداهنة، إن كان في قلبك بغضة نحو أي إنسان تصالح معه قبل يوم الحساب، سَوّي كل هذه الأمور هنا حتى يمكنك أن تدنو من تلك المنصة بلا مديونية.

مادمنا نحيا في هذا الزمان لنا آمال وفُرَص عديدة، لكن عندما نرحل لذلك المكان لن يكون أمامنا خيار للتوبة ولا فرصة لغسل آثامنا، لهذا السبب يجب أن نكون مستعدين بشكل مستمر لوقت الرحيل، ماذا لو أراد السيد الرب أن يدعونا هذا المساء أو غداً؟ إن السيد الرب جعل المستقبل غير معروف لدينا لكي يبقينا على الدوام نشطين في الجهاد، ومستعدين للانتقال في أي وقت، تماماً كما كان لعازر هذا صبوراً في الاحتمال فأُقتيد إلى السماء بمثل هذه الكرامة العظيمة.

مات الرجل الغنيّ أيضاً ودُفن، تماماً كما كانت روحه (وهو حي) مدفونة في جسده كضريح، مرتدياً اللحم كقبر، وذلك لأنه جعل الجسد ميتاً عديم الفائدة بتقييده إياه بالسكر والشراهة كما بالسلاسل. أيها الأحباء لا تعبروا ببساطة على عبارة: "ودفن"، من هذه العبارة نتحقق أن الموائد المُطعَّمة بالفضة والأرائك والسجاجيد والأقمشة المزخرفة وكل الأنواع الأخرى من الأثاث، والزيوت

المعطرة، والعطور المتنوعة، والكميات الكبيرة من الخمر، وتشكيلات الأطعمة المتنوعة، والأطباق غالية الثمن، والطباخين، والمتملقين والحراس والخدم، وكل بقية مفاخره قد أخمدت وذبلت، صار كل شيء الآن رماداً، الكل تراب ورمـاد، ولحن جنائزي وحداد، إذ لا يوجد أحد قادر بعد على تقديم المساعدة أو إعـادة الروح التي غادرت، حينئذ تمتحن قوة الذهب وكل الثراء الزائد عـن الحاجـة. أُقتيد هكذا عرياناً ووحيداً من بين حشد الحاضرين، ولم يستطع أن يأخذ معه أي شيء من هذا الثراء. أُقتيد بلا أي مرافق أو صديق، لا أحد من الذين لازموه أو ساعدوه قبلاً كان له القدرة على إنقاذه من العقوبة والقصاص، لكنه إنْتُزِعَ مـن بين كل هؤلاء التابعين، وأُخِذَ بعيداً وحده لكي يَحْمِل العقوبة التي لا تطاق. حقاً "كُلُّ جَسَدٍ كعُشْبٍ، وكل مجد إنسان كزهر عُشْبٍ، العشب يبِسَ وزهـره سـقط، وأما كلمةُ الرب فتثبت إلى الأبد " (إش ٤٠ :٦-٨ س، ١بط١: ٢٤-٢٥).

الأقنعة في مسرح هذه الحياة:

جاء الموت وأخمد كل هذا التنعم، أخذ الغنيّ وقاده كأسير، وإذ بنـا نـراه محني الرأس، متأوهاً بخزي عظيم، عاجزاً عن الكلام، وخائفاً ومرتعداً، وكأنه قد تمتع بكل هذا التنعم في حُلم، وصار في آخر المطاف متوسلاً معونـة مـن لعازر المسكين - ذلك الرجل الذي كان جائعاً قبلاً، مسـتعطياً مـن مائدتـه، ومعرضاً لأفواه الكلاب - كل منهما قد تبدل موقعه، فأدرك كل إنسان من منهما كان غنياً حقاً ومن كان فقيراً حقاً، وكيف كان لعازر هو الأكثر غنى من الكـل وكيف كان الرجل الغنيّ هو أفقر الكل.

تماماً كما يدخل الممثلون خشبة المسـرح بأقنعـة الملـوك والجنـرالات والأطباء والمعلمون والأساتذة والجنود دون أن يكونوا أنفسهم أي شيء من ذلك، هكذا أيضاً الفقر والغنى في هذه الحياة الحاضرة مجرد أقنعة. فمثلاً إذا رأيـت ممثلاً وأنت تجلس في المسرح لابساً قناع ملك، فأنك لن تظن أنه ملك بالفعـل ولن تدعوه محظوظاً، ولا تتمنى أن تصير مثله، لكن لأنك تعلم أنه صاحب مهنة (ربما يعمل خارج المسرح صانع حبال أو نَحَّاس أو أي شيء من هذا القبيل) لن تدعوه محظوظاً بسبب قناعه وردائه، ولن تحكم على طبقته الاجتماعية بسببهما،

بل سترفض هذه البينة الظاهرة بسبب رُخصْ زيِّه الآخر (خارج المسرح). هكذا نحن أيضاً نجلس في هذا العالم وكأنه مسرح، وننظر الممثلين علـى الخشـبة، فعندما تشاهد العديد من الأغنياء لا تعتبرهم أغنياء حقاً بل مجرد لابسين أقنعـة الغِني، تماماً كذلك الرجل الذي يمثل شخصية ملك أو جنرال علـى المسـرح، غالباً ما تظهر حقيقته بعد ذلك ليكون خادم منزل أو بائع عنـب أو تـين فـي السوق، هكذا أيضاً تظهر حقيقة الرجل الغنيّ - في أغلب الأحيان - ليكون أفقـر الكل فيما بعد. لو كان من الممكن أن تخلع قناعه وتفتح ضميره وتـدخل إلـى عقله، غالباً سوف ترى هناك فقراً شديداً للفضيلة، وستجد أنه ينتمي لطبقة أدنى من الكل. تماماً كما في حالة المسرح، عندما يدنو الليـل ويغـادر المشـاهدون ويخرج الملوك والجنرالات ليخلعوا ملابس أدوارهم، يظهرون بعد ذلـك لِكـل شخص على حقيقتهم، **هكذا أيضاً عندما يأتي الموت ويتبدد مسرح هذا العـالم يخلع كل إنسان أقنعة الثراء والفقر ويرحل للعالم الآخر، ويُحكَّم على كل واحد بحسب أعماله فقط، فيظهر البعض أغنياء حقاً والآخرون فقراء حقـاً، يظهـر البعض من طبقة رفيعة بينما يظهر الآخرون لا قيمة لهم.**

حقاً في أغلب الأحيان تنقلب حالة الشخص الثري في هذه الحياة ليكون أفقر الكل في الحياة الأخرى، كما في حالة هذا الرجل الغنيّ، إذ عندما أدركه المساء - أي الموت - غادر مسرح الحياة الحاضرة ووضع قناعه جانباً وظهـر كـأفقر الكل في ذلك العالم الآخر، **فقيراً جداً للدرجة التي لم يكن فيها محتكمـاً حتـى على قطرة ماء، بل كان عليه أن يستعطي إياها، ولـم يحصـل عليهـا حتـى بالاستجداء، أتوجد حالة أكثر فقراً من هذه الحالة؟!**، إذ رفـع عينيـه وقـال لإبراهيم : "يا أبي إبراهيم، ارحمني وأرسل لعازر ليبُلَّ طرف إصبعه بماء ويُبرِّد لساني" (لو١٦: ٢٤)، أترى شدة بليته؟ عندما كان لعازر قريباً منه كان يهمله، أما الآن وهو على مسافة بعيدة منه يدعوه، ذلك الذي لم يلتفت إليه فـي المـرات العديدة التي كان يدخل فيها ويخرج، الآن يراه بكل وضوح وهو بعيداً عنه جداً.

ولماذا لم يلتفت إليه؟ ربما كثيراً ما قال الغنيّ في نفسه: "لماذا أحتاج تقوى وفضيلة؟ فكل شيء يتدفق إلي بغزارة كما من ينبوع، أتمتع بوفرة كبيرة وازدهار عظيم، ولا أعاني من أي شدة، لماذا أطلب الفضيلة؟ فأمامي ذلك

المسكين يعاني من بلايا كثيرة بالرغم من أنه يعيش في بر وتقوى"، بل وحتى الآن نرى كثيرين من الناس يفكرون بهذه الطريقة، لذا لكي يستأصل الرب هذه الأفكار الخاطئة أظهر أن الشرير ينتظره العقاب، والمجاهد في طريق التقوى ينتظره أكاليل المجد.

رأى الرجل الغنيّ لعازر لسبب آخر أيضاً، حتى يمكن له أن يعـاني الآن بدرجة أكبر مما قد عانى منه المسكين من قبل، فكما صارت معانـاة المسـكين أقسى بكونه مطروحاً على باب الغنيّ، مبصراً رخاء الآخرين، كـذلك أيضـاً صارت عقوبة الغنيّ أقسى بكونه مطروحاً في الجحيم مبصراً تنعم لعازر، حتى يمكنه الحصول بذلك على عقوبة غير محتملة، ليس فقط بواسطة طبيعة عذابـه بل بالمقارنة أيضاً مع مكافأة الرجل الآخر.

عندما طرد اللَّه آدم من الفردوس، أقامه مقابلها حتى بمشاهدتها المسـتمرة يمكنه أن يجدد معاناته ويعطيه إدراكاً أوضح لسقوطه من حالة الصلاح، كـذلك أيضاً أقام اللَّه الرجل الغنيّ مقابل لعازر لكي يمكنه أن يرى النعيم الذي حـرم نفسه منه، كأنه يقول له: "أرسلت لك لعازر المسكين على بابـك لكـي يعلمـك الفضيلة ولكي يتقبل محبتك لكنك تجاهلت هذه المنفعة، ورفضـت أن تسـتخدم مساعدته العاملة لخلاصك، لذلك في الحياة الأخرى سوف تستخدمه ليجلب لـك عقوبة وقصاص أشد".

سلب حاجات الفقراء:

نتعلم من قصة هذا المسكين، أن **جميع الذين يعانون من المحن والظلم حولنا سوف يقفون مقابلنا في الحياة الأخرى.** في الواقع لم يتعدى الغنيّ على لعازر بأي عمل ظالم فهو لم يستولى على أي مال يخص لعازر، لكنه أخفق فقط في مشاركة ما له. فإن كان الغنيّ مُتَّهَماً هكذا بسبب الرجل الذي قَصَّر في تقديم الرحمة له بعدم مشاركة ماله الخاص، فأي عذر يكون لذلك الإنسان الذي يختلس من مال الآخرين عندما يكون محاطاً بأولئك الذين ظلمهم هناك؟ في ذلك العالم الآتي ليست هناك حاجة لشهود ومُشتكون وأدلة وبراهين، لأن الأعمال نفسها ستظهر أمام أعيننا كما فعلناها بالضبط.

نتعلم من قصة الرجل الغنيّ: أن عدم مشاركة المحتاجين في الممتلكات الخاصة هو أيضاً سرقة، ربما هذه العبارة تبدو مفاجئة لك لكن لا تندهش فسوف أقدم لك شهادة من الكتاب المقدس تؤكد أن السرقة ليست فقط سرقة ممتلكات الآخرين، بل الإخفاق في مشاركة الممتلكات الخاصة مع الآخرين يعتبر سرقة وغش واحتيال، ما هي هذه الشهادة؟ هي اتهام اللّه لليهود بواسطة النبي قائلاً: "أيسلب الإنسان اللّه فإنكم سلبتموني. فقلتم بم سلبناك. في أن العشور والبكور مازالوا عندكم ... السنة كملّت وأحضرتم كل الإنتاج إلى المخازن، إلا أن سرقة (الفقير) في بيتكم " (ملا ٣: ٨ – ١٠ س)، أي بما أنكم لم تعطوا التقدمة المعتادة سلبتم بذلك حاجات الفقراء، يقول هذا ليظهر للأغنياء أنهم يحتجزون حاجات الفقراء، حتى وإن كانوا قد ورثوها من آباءهم أو جمعوها بأي طريقة أخرى. وفي موضع آخر من الكتاب يقول: "يا بني لا تحرم الفقير ما يعيش به" (سي ٤: ١). أن تحرم أي أن تأخذ ما يخُصْ آخر، لذلك عندما نأخذ ونحتفظ ما يخص الآخرين يسمى ذلك حرمان، من هذا نتعلم أنه عندما لا نظهر رحمة سوف نعاقب كأولئك الذين يسرقون، لأن مالنا هو مال الرب مهما كانت الطريقة التي جمعناه بها.

إن أعطينا أولئك المحتاجين سنحصل على وفرة عظيمة، لهذا السبب سمح اللّه لك أن يكون عندك أكثر، لا لكي تبذره على بنات الهوى والشراب والطعام الفاخر والملابس غالية الثمن وكل الأنواع الأخرى من الترَف، بل لكي توزع منه على أولئك المحتاجين، تماماً كالموظف في الخزانة الإمبراطورية الذي إن تجاهل توزيع ما قد أُمرَ به وأنفقه بدلاً من ذلك على متعته الخاصة يُعاقب ويُحكم عليه بالموت، كذلك أيضاً الرجل الغنيّ هو مجرد خادم وكيل على المال المخصص للتوزيع على الفقراء، فهو مُكلف بتوزيعها على رفقائه العبيد المحتاجين، فإن أنفق أكثر من احتياجه على نفسه سيجازى بعقوبة قاسية في الحياة الأخرى، لأن ممتلكاته الخاصة ليست له بل تخص زملائه العبيد.

لذلك دعونا نستعمل ما يخصنا بشكل مقتصد كأنهم يخُصُون آخرين حتى يمكن بذلك أن يصيروا ملكنا. كيف نستعملهم بشكل مقتصد كأنهم يخُصُون

آخرين؟ عندما لا ننفق أكثر من احتياجنا، وليس فقط ننفق على قدر حاجتنا بل نقدِّم حصصاً مساوية لأيدي الفقراء. **إن كنت غنياً وتنفق على نفسك أكثر من حاجتك ستُعطي حساباً على الأموال التي اؤتُمِنت عليها.** يحدث ذلك أيضاً في المنازل الكبيرة، فالعديد من الناس يأتمنون شئونهم المالية لخدامهم، والخدام الذين يستلمون هذه الأمانة لا يسيئوا استعمالها بل يحافظون عليها، فيصرفونها في الوقت المناسب بحسب توجيه سيد كل منهم. يجب عليك أنت أيضاً أن تفعل ذلك، إذ أنك حَصَّلت على أكثر مما يملكه الآخرين، واستلمت ذلك لا لكي تنفقه على نفسك بل لكي تصير وكيلاً صالحاً لأجل الآخرين أيضاً.

إبراهيم وضيافته للغرباء:

شيء آخر جدير بالبحث، لماذا رأى الرجل الغنيّ لعازر في حضن إبراهيم ولم يراه مع أي شخص بار آخر؟ لأن إبراهيم كان مضيافاً، رآه مع إبراهيم حتى ما يدان أيضاً بعدم الضيافة، لأن إبراهيم البطريرك أصطاد أولئك الذين كانوا سيتجاوزونه وأحضرهم إلى بيته(٢١)، أما هذا الغنيّ فقد تغافل عن الشخص المضطجع داخل بوابته، وبالرغم من كونه أمامه - هذا الكنز وهذا العون لأجل خلاصه - إلا أنه كان يتجاوزه كل يوم ولم ينتفع بعون المسكين وهو في أشد الحاجة له، لكن البطريرك لم يكن مثل هذا الرجل الغنيّ بل كان على النقيض منه تماماً، إذ وهو جالساً أمام بابه كان يصطاد جميع الذين كانوا يعبرون، وكمثل صياد السمك الذي يلقي شبكته في البحر، فيسحب ليس سمكاً فقط بل ذهباً ولآلئ أيضاً، كذلك أيضاً هذا البطريرك مرة وهو يصيد الناس قبض دون أن يدري على ملائكة أيضاً. بولس الرسول في تعجبه من ذلك مدحه قائلاً: "لا تنسوا إضافة الغرباء، لأن بها أضاف أُناسٌ ملائكة وهم لا يَدرون." (عب ١٣:٢). لو كان على علم بحقيقتهم عندما استقبلهم بمثل هذه الرغبة الحسنة ما كان حُسبَ عمله هذا شيء عظيم أو رائع، لكن سبب المدح كله يكمُن في عدم

(٢١) " فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلمَّا نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض، وقال:" يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك " (تك ١٨: ٢، ٣).

الدراية بمن هم عابري السبيل، مفكراً أنهم مجرد بشر مسافرين، ودعاهم للداخل بمثل هذا الاشتياق.

أنت أيضاً متى استقبلت شخص ذو شأن أو مشهور، وأظهرت اشتياقاً كبير نحوه لا تكون قد فعلت شيئاً جدير بالملاحظة، لأن قيمة الضيف غالباً ما تجبر حتى الإنسان الغير مضياف ليظهر رغبة كبيرة حسنة، لكن **متى استقبلنا أي إنسان يُصادفنا - حتى وإن كان شخصاً منبوذاً ولا قيمة له - برغبة كبيرة حسنة، يكون هذا العمل عظيم** وجدير بالملاحظة، لهذا السبب قال السيد المسيح مُرَّحِباً بأولئك الذين يتصرفون هكذا : "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم" (مت ٢٥:٤٠)، وقال أيضاً : "هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار" (مت ١٨:١٤)، وقال أيضاً: "ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار .. فخير له أن يُعلَّق في عُنُقِهِ حجر الرَّحى ويُغْرَق في لُجَّة البحر" (مت ١٨:٦)، في كل مكان نجد السيد المسيح عنده الكثير ليقوله عن الصغار والمنبوذين. وإذ أن إبراهيم أيضاً كان يعرف هذا، لذلك هو لم يستعلم من عابري السبيل عن حقيقتهم ومن أين جاءوا - كما نفعل نحن الآن – لكنه ببساطة رحب بجميع العابرين، فإن أردت أن تظهر شفقة يجب عليك أن لا تطلب حساباً بشأن حياة الشخص المحتاج بل فقط تعالج فقره وتملأ احتياجه.

أعط المستحق وغير المستحق:

لدى أي إنسان فقير التماس واحد هو حاجته ووضعه المُعوز، لا تطلب أي شيء آخر منه، **بل حتى وإن كان هو الأكثر شراً من بين جميع الناس لكنه فاقد للقوت الضروري، يجب علينا أن نعتقه من الجوع.** السيد المسيح أيضاً أمرنا أن نفعل ذلك عندما قال: "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمْطِر على الأبرار والظالمين" (مت٥:٤٥)، الذي يعطي صدقة هو ميناء لأولئك المحتاجين، والميناء يستقبل كل الذين تحطمت سفينتهم، ويحررهم من الخطر سواء إن كانوا أشرار أو صالحين - أياً كان وضع الذين في خطر - ويرافقهم لملاذه الخاص، **كذلك أنت بطريقة مماثلة**

عندما ترى على الأرض ذلك الشخص الذي تحطمت سفينته بالفقر، لا تحكم عليه، ولا تطلب معرفة قصة حياته لكن حرره من محنته.

لماذا تجلب لنفسك الهم؟ قد أعفاك اللّه من كل تطفل وفضولية. إلى أي حد كان سيتذمر الكثير منا، لو كان اللّه قد أمرنا أولاً أن نفحص بدقة حياة كل محتاج، ونتدخل في سلوكه وأعماله، وعندئذ فقط نعطيه صدقة؟! لكننا أحرار كما هو الحال من هذا النوع من الإزعاج، لماذا نجلب لأنفسنا إذاً اهتمامات زائدة؟ **القاضي شيء أما الإنسان المُحسِّن فشيء آخر.** الإحسان دعي كذلك لأننا نقدمه حتى لغير المستحق. القديس بولس أيضاً يوصينا بأن نفعل ذلك عندما يقول: " فلا نفشل في عمل الخير ... فلنعمل الخير للجميع، ولا سيَّما أهل الإيمان" (غلا ٦ :٩ - ١٠). إن تطفلنا وتدخلنا في شئون غير المستحق فلن يأتي إلينا حتى المستحق عن طيب خاطر أبداً، لكن إذا قدمنا أيضاً لغير المستحق، سيأتي إلينا بلا شك كلا المستحق وغير المستحق.

هذا ما حدث مع إبراهيم المبارك الذي بسبب عدم تطفله وتدخله مع العابرين، كان ممكناً له أن يستقبل ذات مرة ملائكة. ليتنا نتشبه به، وأيضاً مع إبراهيم نتشبه بأيوب سليله، الذي تشبه بشكل دقيق بكرم سلفه، ولذلك قال: "غريب لم يَبِتْ في الخارج. فَتَحتُ للمسافر أبوابي" (أي ٣٢:٣١)، لم يكن بابه مفتوحاً لواحد ومغلقاً لآخر بل كان ببساطة مفتوحاً أمام الكل.

أتوسل إليكم، لنفعل ذلك نحن أيضاً بدون عمل أي استعلام أكثر من ضروري، ما نحتاجه فقط هو استحقاق المسكين بسبب فقره، إن جاء إلينا أي إنسان في أي وقت بهذه التوصية (فقره) دعنا لا نتدخل في ما لا يعنينا، نحن لا نعطي للأخلاق بل للإنسان، نحن لا نظهر له رحمة بسبب فضائله بل بسبب محنته، هكذا يمكننا نحن أيضاً أن نتلقى من السيد الرب رحمته العظيمة، وأن نتمتع نحن الغير مستحقين بمحبته لبني البشر، لأننا إن كنا سنتحرى عن استحقاق رفقائنا العبيد ونستعلم عنهم بدقة، سيفعل معنا اللّه نفس الشيء. إن كنا نسعى لطلب حساب من رفقائنا العبيد، سنفقد محبة اللّه التي من فوق، إذ هو يقول: "لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تَكيلون يُكال لكُم" (مت ٧: ٢).

يا أبي إبراهيم ارحمني:

لنرجع بحديثنا إلى المثل، الرجل الغنيّ يقول لإبراهيم وهو يرى لعازر في حضنه: "يا أبي إبراهيم أرحمني وأرسل لعازر". ترى لماذا لم يوجه كلامه للعازر؟ يبدو لي أنه خجل واستحى أن يكلمه، وبسبب ما حدث منه قبلاً فكر أن لعازر بلا شك يحمل ضغينة له، وقال في نفسه : "إذا كنت أنا، عندما كنت أتمتع بمثل هذا الثراء وأعيش بلا أي أذى، تجاهلت هذا الرجل الذي كان يعاني بمثل هذه المشاكل، ولم أشاركه حتى فتات الخبز، فكم بالأكثر لن يوافق هو - ذلك الذي تجاهلته - على الإحسان". نحن لا نقول هذا لنتهم لعازر - فبالتأكيد لم يكن هذا موقفه بل بعيد كل البعد عنه - لكننا نقول أن الغنيّ لم يخاطبه لخوفه من ذلك، لكنه نادى على إبراهيم الذي ظن أنه يجهل ما قد حدث، والتمس ذلك الأصبع الذي كثيراً ما جاز للكلاب أن تلحسه.

ما الذي قاله إبراهيم؟ "يا ابني، اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لو١٦:٢٥). أترى حكمة وطيبة الرجل البار. لم يقل له: " أيها الشخص الشرير القاسي والوحشي، بعد ما عاملت الرجل برداءة شديدة، تتذكر الآن الإحسان والرحمة والغفران؟ ألا تخجل؟ ألا تستحي من نفسك؟" بل ماذا قال له: " يا ابني .. أنك استوفيت خيراتك"، إذ أنه مكتوب: "لا تزد القلب المُغتاظ قلقاً" (سي ٤:٣). إن عقوبته كافية، دعنا لا ندوس أكثر على بلاياه.

بالإضافة إلى ذلك، دعاه " ابني" لكي يمنع الرجل الغنيّ من التفكير أنه بسبب الحقد منع لعازر من الذهاب، معتذراً عن نفسه بمثل هذا الخطاب: "ليس في مقدرتي أن أمنحك ذلك"، فقال: " الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون" (لو١٦:٢٦).

ولماذا قال "أنك استوفيت خيراتك في حياتك"، ولم يقل: "أنك أخذت خيراتك في حياتك"؟ ... أرى هنا بحر واسع من الأفكار تنفتح لأجلنا، لذلك دعونا نحافظ بكل عناية على كل ما قيل - سواء اليوم أو في المرة السابقة - ولنصونه في موضع آمن، وبواسطة ما قيل هيئوا أنفسكم على نحو أفضل لكي تنصتوا لما سوف يقال، وبحسب مقدرتكم تذكروا كل شيء قلته.

وإن كنتم لا تستطيعون أن تتذكروا كل شيء فعلى الأقل - أتوسل إليكم - تذكروا هذا الأمر بلا أي إهمال: عدم مشاركة ثروتنا الخاصة مع الفقراء هو سرقة من الفقراء وحرماناً لهم من وسائل المعيشة، نحن لا نمتلك ثروتنا الخاصة بل هم. إن أدركنا هذا بلا شك سوف نقدم أموالنا، وبواسطة تغذية السيد المسيح - الذي يعيش في فقر هنا (متمثلاً في أخوته الأصاغر) لكنه في الحياة الآتية مدخر لنا ربح عظيم - سيمكننا أن نحقق الأشياء الآتية السعيدة، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة والقوة مع الآب والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثالثة

الجهاد الروحي

وحياة الترف

" وكلُّ مَنْ يُجاهِدُ يَضبُطُ نفسَهُ في كل شيءٍ.
أمَّا أولئكَ فلكي يأخُذوا إكليلاً يَفنى،
وأمَّا نحنُ فإكليلاً لا يَفنى.
إذاً، أنا أركُضُ هكذا كأنهُ ليس عن غير يَقينٍ.
هكذا أُضاربُ كأنِّي لا أضربُ الهواء.
بل أقمعُ جسدي وأستعبدُهُ،
حتى بعد ما كرزتُ للآخرين
لا أصيرُ أنا نفسي مرفوضاً ".

(١كو ٩: ٢٥ ـ ٢٧)

العظة الثالثة

الجهاد الروحي وحياة التَرف

أهمية قراءة الكتاب المقدس:

كان مَثَل لعازر ذا منفعة رائعة لنا جميعاً - للأغنياء كما للفقراء على حد سواء - فهو علَّم الفقراء أن يتحملوا فقرهم برباطة جأش، ولم يسمح للأغنياء أن يكونوا فخورين بثرائهم، وعلمنا بالمثال أن الإنسان الذي يعيش حياة مرفهة ولا يُشرِك غيره فيما له هو إنسان جدير بالشفقة، لذلك دعونا نمسك في ذات الموضوع مرة أخرى. إن أولئك الذين يعملون في استخراج المعادن النفيسة عندما يرون أن هناك الكثير من عروق الذهب يستمرون في الحفر في نفس المكان، ولا يتوقفون حتى يستخرجون كل ما يمكنهم أن يجدوه.

لنرجع إذاً إلى الموضع الذي تركنا فيه حديثنا المرة السابقة ونستكمل من هناك. كان يمكنني أن أفسر لكم هذا المثل كله في يوم واحد، لكن اهتمامي لم يكن أن أقول لكم كلاماً كثيراً ثم أترككم، بل أن تستقبلوا كلامي وتتمسكوا به بتدقيق، وأن تكسبوا من هذا الجهد في التذكر بصيرة تجلب لكم منفعة روحية.

الأم المُحِبَّة التي أوشكت على تقديم طفلها الرضيع للطعام، إذا صبت خمراً في فمه مرة واحدة تضره، فالرضيع سيبصق ما أخذه وسيبلل صدر قميصه، لكنها لو صبت له الخمر بلطف قليلاً قليلاً سيبلع ما أخذه بدون صعوبة، هكذا أيضاً لمنعك من بصق ما أخذته لم أعطك كأس التعليم مرة واحدة بل قطعته لك على أيام كثيرة، مقدماً لك راحة من الاستماع في هذه الأيام الفاصلة حتى يلتصق في وجدانك بشكل ثابت كل ما يعرض عليك، وحتى يمكنك أن تستقبل الكلام القادم بروح مستريحة ونشيطة.

لهذا السبب أيضاً، كثيراً ما أُخبِركم مقدماً عن الموضوع الذي سأتكلم عنه، حتى تأخذ الكتاب المقدس في الأيام الفاصلة وتقرأ الفقرة كلها وتدرس ما قيل وما هو متبقي، وبذلك تجعل فهمك أكثر استعداداً للتعلّم عند سماعك ما سوف أقوله بعدئذ.

أيضاً أتوسل إليكم ولا أكف عن ذلك، ليس فقط لكي تنصتوا جيداً لكلامي هنا بل أيضاً لكي تواظبوا بشكل مستمر وأنتم في البيت على قراءة الكتاب المقدس. لم أتوقف عن إعطاء نفس النصيحة لكم عند مقابلة كل واحد منكم بشكل خاص، لا أريد سماع تلك الكلمات الفارغة المستوجبة إدانة عسيرة: "لا أستطيع أن أترك مبنى المحكمة، أنا أدير عمل في المدينة، أنا أمارس حرفة، أنا لدي زوجة، أنا أربي الأطفال، أنا مسئول عن أسرة، أنا رجل من العالم، قراءة الكتاب المقدس ليست لي بل لأولئك المنعزلين الذين يسكنون الجبال، ويلازمون طريقة الحياة هذه باستمرار"، يا رجل ما هذا الذي تقوله؟ تقول أن المواظبة على الكتاب المقدس لا تخصك نظراً لأنك محاط باهتمامات كثيرة، بل على العكس تخصك أكثر منهم، لأنهم لا يحتاجون مساعدة الكتاب المقدس بالقدر الذي يحتاجه أولئك المنغمسين في أشغال عديدة. الرهبان الذين أُعتِقوا من صخب السوق ورَتبوا أكواخهم في البرية، الذين لا يملكون شيئاً، وكل ما لهم مشاعاً لأي إنسان، ويمارسون الحكمة بلا خوف في سكون تلك الحياة الهادئة، وكأنهم يستريحون في ميناء، هؤلاء يتمتعون بأمان عظيم، أما نحن فمنقادون وراء خطايا عديدة كما لو كنا نتقاذف في وسط البحر، لذلك **نحتاج دائماً لمعونة الكتاب المقدس بشكل متواصل ومستمر. هم يستريحون بعيداً عن المعركة وبالتالي لا يتلقون جراحات كثيرة، أما أنت فتقف بشكل مستمر في الصف الأمامي وتتلقى ضربات متواصلة، ولذلك تحتاج أدوية أكثر.**

على سبيل المثال، زوجتك تستفزك، ابنك يُحزنك، خادمك يُغضبك، عدوك يتآمر ضدك، صديقك يحسدك، جارك يلعنك، زميلك يمسك عليك زلة، شكاوى قانونية تهددك في أحوال كثيرة، الفقر يزعجك، خسارة أملاكك تُحزنك، الازدهار ينفخك، سوء الحظ يُحبطك، وأحداث عديدة واضطرارات تحيط بك من كل جانب تؤدي إلى الإحباط والحزن والوهم واليأس، وقذائف كثيرة تسقط من كل مكان. **من أجل ذلك نحتاج بشكل مستمر السلاح الكامل الذي للكتاب المقدس**، إذ أنه مكتوب: " اعلم أنك تجتاز بين الفخاخ وتمشي على أسوار المدينة[٢٢]" (سي ٩:٢٠).

---

(٢٢) المشي على أسوار المدينة يعني التعرض لسهام الأعداء.

على سبيل المثال، تجارب الجسد تهاجم بأكثر حِدَّة أولئك الذين يعيشون في وسط العالم، فوجه وسيم أو جسد بديع يضربنا في الأعين، وعبارة فاضحة تثقب أذاننا وتزعج عقولنا، وأغنية مخنثة غالباً ما تضعف شدة أرواحنا، لكن لماذا أقول هذا؟ لأن تلك الأشياء التي غالباً ما تبدو أقل أهمية من كل هذه الهجمات، مثل رائحة العطر التي تنبعث من بنات الهوى العابرين من مكان قريب، تفتنًا وتأسرنا كسجناء من جراء صدفة عارضة، وهناك أشياء كثيرة مثل هذه تحاصر أرواحنا. **نحن نحتاج للأدوية الإلهية من أجل شفاء الجروح التي حَصُلنا عليها، ونحتاجها أيضاً لحمايتنا من تلك الضربات القادمة التي لم نتلقاها بعد. يجب علينا أن نُطفِئ تماماً سهام إبليس ونتغلب عليها بالقراءة المستمرة في الكتاب المقدس.** إذ أنه مستحيل، مستحيل لأي شخص أن ينجو بدون الاستفادة المستمرة من القراءة الروحية. في الواقع يجب أن نكون مشبعين بها، لأنه حتى مع الاستعمال المستمر لهذا العلاج نكون بالكاد قادرين على النجاة، فأي أمل للنجاة يكون لنا إن كنا نُضَّرب كل يوم ولا نستعمل أي نوع من العناية الطبية؟

القراءة في الكتاب المقدس هي وسيلة حماية عظيمة ضد الخطيئة، أما الجهل به فهو انحدار شاهق و هاوية عميقة، عدم معرفة شيء عن النواميس الإلهية هو خيانة كبيرة للخلاص، هذا هو ما ولَّد البدع وقدَّم طرق فاسدة للحياة وأدحر الأمور السامية، لأنه مستحيل، مستحيل لأي شخص يقرأ بانتباه وبشكل مستمر أن ينصرف بدون منفعة. قد رأيتم كيف أفادنا مثل واحد، وبأي قدر قد حسَّن من نفوسنا؟ أنا واثق أن كثير من الناس غادروا حاصلين من الاستماع على منفعة باقية، وحتى إن كان البعض لم يجني مثل هذا الثمر إلا أنهم بلا شك صاروا أفضل بسبب يوم واحد أنصتوا فيه، فهو ليس بالشيء الهين أن تقضي يوم واحد في التوبة عن الخطيئة، والتطلع نحو الفلسفة السماوية، على الأقل بذلك تزود روحك براحة قصيرة من الاهتمامات العالمية. إن فعلنا ذلك في كل خدمة دون أن نتغيب عن واحدة، ستُحقق استمرارية الإنصات أشياء عظيمة ونبيلة في نفوسنا.

استوفيت خيراتك في حياتك:

هيا بنا إذاً لأشرح لكم الجزء التالي من المثل، عندما قال الرجل الغنيّ: "أرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرِّد لساني"، ولنسمع ما قاله إبراهيم: " يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا"، هذا الكلام صعب الاحتمال ويجلب لنا ألماً شديداً - أعلم ذلك - لكن بقدر ما يوجعك ضميرك بقدر ما يساعدك ذلك على الفهم. لأنه لو كان إبراهيم يوجه لنا هذا الكلام في تلك الحياة الآتية كما قاله للرجل الغنيّ، لكان علينا حقاً أن نئن ونبكي وننوح، إذ ليس لنا هناك وقت باقٍ للتوبة، لكن بما أننا نسمع كلامه ونحن مازلنا في هذه الحياة التي يمكننا فيها أن نستعيد رشدنا ونغسل خطايانا ونحصُل على الثقة، ونغير من أنفسنا بسبب الخوف من الشرور التي تمت للآخرين، **لنقدم إذاً الشكر للّه محب البشر الذي يُوقظ بلادتنا بعقوبة الآخرين ويُنهضنا من النوم.** السيد المسيح يخبرنا بذلك مقدماً لهذا السبب، لكي يقينا من تحمل نفس العقوبة، لأنه لو أراد معاقبتنا ما كان قال لنا ذلك مقدماً، لكن نظراً لأنه لا يريد أن يعرضنا للعقوبة، لذلك هو يعرفنا العقوبة مقدماً لكي نتعلم الصواب من كلماته وننجو من التجربة عملياً.

لكن لماذا لم يقل إبراهيم "أخذت خيراتك في حياتك" بل قال: "استوفيت خيراتك في حياتك"، أتذكروا أني قلت (المرة السابقة) أن هناك بحر واسع من الأفكار ينفتح لنا، عبارة "استوفيت" تُوضح وتُظْهر نوعاً ما من الالتزام، إذ أن الشخص يأخذ ما هو مُدان له كمستحقات. إذا كان الرجل الغنيّ بغيضاً وفاسداً وقاسياً ووحشياً، لماذا لم يقل له إبراهيم "أخذت خيراتك" بل قال له: " استوفيت خيراتك" وكأنها ديون مستحقه له؟ ماذا نتعلم من ذلك؟ نتعلم أنه حتى لو كان البعض فاسدين وبلغوا أقصى الشرور، إلا أنهم غالباً ما يكونون قد فعلوا شيئاً واحداً أو شيئين أو ثلاثة أشياء صالحة. قولي هذا ليس مجرد تخمين بل هو واضح من الكتاب المقدس. فمن هو أكثر فساداً من قاضي الظلم؟ من هو أكثر قسوة؟ من هو أكثر شناعة؟ كان هذا الرجل لا يخاف اللّه ولا يهاب إنساناً،

وبالرغم من تلك الحياة الشريرة إلا أنه عمل شيئاً نبيلاً، وذلـك عنـدما أظهـر رحمة للأرملة التي كانت تزعجه بشكل متواصل، ومنح لهـا العطـف، وقـدم لها طلبها، وحاكم أولئك الذين كانوا يسيئون إليها[٢٣]. هكـذا مـن الممكـن أن يكون شخص فاسق لكنه رحيم في بعض الأحيـان، أو شـخص قاسـي لكنـه ضابط لنفسه، وحتى إن كان الشخص قاسي وفاسق في نفـس الوقـت إلا أنـه غالباً ما يكون قد فعل شيئاً واحداً صالحاً في حياته. يجب علينا أن نتوقع نفـس الشيء أيضاً بالنسبة للأبرار، فكما في حالة الناس الأدنى غالباً ما يفعلوا شـيئاً صالحاً، كذلك أيضاً في حالة الأشخاص الجادين والمستقيمين غالباً ما يخفقـون كلياً في شيء ما، إذ أنه مكتوب "من يقول إني زكّيـت قلبـي، تطهّـرت مـن خطيتي؟" (أم ٢٠:٩).

من المرجَّح إذاً، أن الرجل الغنيّ حتى لو كان قد بلغ أقصى الشرور إلا أنه قد فعل شيئاً صالحاً، وحتى لو كان لعازر بلغ من الفضيلة أوجهها إلا أنـه قـد ارتكب بعض الذنب القليل، أترى كيف أن البطريرك أشار لكلاهما حينما قـال: "أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا"، ما يقصده إبراهيم هـو: حتى لو كنت قد فعلت شيئاً صالحاً ومكافأة ذلك الشيء مديونة لك، إلا أنك قـد أخذت كل هذه الأشياء المستحقة لك في ذلك العالم، عائشاً في رفاهية وغنـى، متمتعاً بازدهار عظيم وحظ سعيد، وإن كان لعازر قد فعل شيئاً رديئاً، إلا أنه قد أخذ كل شيء مستحق لذلك، متألماً من الفقر والجوع وأقصى البلايا. كل واحـد منكم حضر هنا عرياناً، هو من الخطايا وأنت من أعمال البر الفاضـلة، لهـذا يحصل لعازر على تعزية خالصة أما أنت فتتحمل عقوبة غير مخففة.

لأنه عندما تكون أعمالنا الصالحة صغيرة وهزيلة وثقل خطايانـا ضـخم ببشاعة، لو تمتعنا في هذه الحياة بالازدهار ولم نعاني من أي محنـة، سـوف نغادر بلا شك مكشوفين وعريانين من مقايضة الأشياء الصالحة، نظـراً لأننـا نكون قد أخذنا كل مستحقاتنا في هذه الحياة. على نفس الـنمط، عنـدما تكـون أعمالنا الصالحة كثيرة وعظيمة وخطايانا صغيرة وهزيلة، لو عانينـا مـن أي

---

[٢٣] " وإن كنت لا أخاف اللّه ولا أهاب إنساناً، فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني، أنصفها " (لو ١٨: ٤،٥).

بلية، نطرح بذلك تلك الخطايا الصغيرة في هذه الحياة، وفي الحياة الآتية نأخذ مكافأة صافية كمستحقة لنا بسبب أعمالنا الصالحة. من أجل ذلك **عندما ترى أي إنسان شرير يحيا بدون أي معاناة أو ضيق في هذه الحياة، لا تدعوه محظوظاً، بل أبكي ونوح من أجله، لأنه سيضطر لتحمل كل البلايا في الحياة الآتية، تماماً كهذا الرجل الغنيّ. ومن ناحية أخرى، عندما ترى أي إنسان يزرع الفضيلة ومع ذلك يتحمل تجارب كثيرة، أدعوه محظوظاً وأحسده، لأن كل خطاياه قد ذابت في هذه الحياة، وهناك مكافأة عظيمة مُعدَّة له نظير احتماله في الحياة الآتية، تماماً كما حدث لهذا المسكين لعازر.**

العقاب في الحياة الحاضرة والآتية:

بعض الناس يعاقبون فقط في هذه الحياة، آخرون يأخذون كل عقابهم المستحق في الحياة الآتية ولا يعانون من أي ضيق هنا، والبعض الآخر يعاقب في كلتا الحياتين الحاضرة والآتية. أي من هؤلاء الثلاثة تعتبره محظوظاً؟ في المقام الأول بالطبع أولئك الذين يعاقبون هنا ويطرحون خطاياهم بعيداً، حسناً من يأتي في المقام الثاني بعدهم؟ ربما تظن إنهم أولئك الذين يحصلون على كل عقابهم في الحياة الآتية ولا يعانون من أي شيء هنا، لكنني لا أتفق معك، بل هم أولئك الذين يعاقبون في كلتا الحياتين، لأن ذلك الذي يدفع بعض العقوبة هنا، سوف يواجه في الآخرة عقوبة أخف، أما ذلك المجبر على تحمل كل عقوبته في الآخرة سيحصل على حكم بلا رحمة، كمثل هذا الرجل الغنيّ الذي لم يغسل أي من خطاياه هنا، فعوقب بصرامة شديدة للدرجة التي لم يستطع فيها أن يحصل على قطرة صغيرة من الماء.

أني أشعر بالأسف على أولئك الذين بالإضافة لعدم عقوبتهم هنا يتمتعون بالرفاهية والثراء، لأنه كما أن عدم دفع العقوبة عن الخطايا هنا يجعل الجزاء أكثر ثقلاً فيما بعد، كذلك أيضاً يصير تمتع الخطاة بالتَرف والغنى والانغماس في الملذات مصدراً وسبباً لعقوبة أشد.

عندما نأخذ نحن الخطاة عطايا من اللَّه، هذه العطايا عينها من الممكن أن تلقي بنا في عمق النار، لأنه إن كان الشخص يتمتع بطول أناة اللَّه، ولا يحسن

الاستفادة من ذلك، سيحصل على عقوبة أكثر صرامة، وإن كان قد حصل على كرامات عظيمة بالإضافة إلى طول أناة اللَّه، ومع ذلك مستمر في شره، فمن سينقذه من العقاب الشديد؟ لنسمع ما يقوله ق. بولس مؤكداً أن الذين يتمتعون بطول أناة اللَّه وإمهاله هنا، سيجمعون لأنفسهم إن لم يتوبوا ملء العقاب في الآخرة: " أفتظنُّ هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه، وأنت تفعلها، أنك تنجو من دينونة اللَّه؟. أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لُطف اللَّه إنما يقتادك إلى التوبة؟ ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب، تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة اللَّه العادلة" (رو٢: ٣-٥).

لذا عندما نرى أناساً يعيشون في ثراء وتَرف، متعطرين بالعطور، ومجتازين اليوم في السكر، ولهم كرامة وقدرة عظيمة وشهرة ونفوذ ضخم، ومع ذلك يخطئون بلا تحمل أي ضيق، نبكي وننوح من أجلهم خصيصاً من أجل هذا السبب عينه: لأنهم لا يعاقبون على خطاياهم. تماماً كأنك ترى إنساناً مريضاً بداء الاستسقاء أو بالطحال أو عنده قرحه عفنة أو قُرَحْ جلدية متعددة في جميع أنحاء جسمه، ومع كل ذلك تراه منغمساً في الملذات والسكر، فيجعل مرضه يتفاقم، أنت لست فقط لن تعجب به بالنظر إلى حياته المرفهة أو تفكر أنه محظوظ، بل على العكس سوف تتأسف عليه من أجل تلك الحياة ذاتها. يجب عليك أن تفكر عن الروح بنفس الطريقة، عندما ترى شخص يعيش في شر ويتمتع برخاء عظيم، بلا تحمل أي ضيق، يجب عليك أن تنوح عليه لهذا السبب عينه، إذ بالرغم من أنه مبتلي بمرض شديد وقرحة (شره)، إلا انه يجعل مرضه يتفاقم ويصير أردأ بسبب تَرفه وانغماسه في اللذات. **إذ أن العقاب ليس شراً إنما الخطيئة شر. الخطيئة تفصلنا عن اللَّه، أما العقاب فيقودنا نحو اللَّه ويبدد غضبه.** كيف نعرف هذا؟ لنسمع ما يقوله النبي: "عزُّوا عزُّوا شعبي يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمُل، أن إثمها قد عُفيَ عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضِعفين عن كل خطاياها" (إش ٤٠: ١-٢)، وفي موضع آخر يقول : "أيها الرب إلهنا اجعل لنا سلاماً. لأنك صنعت لنا كل شيء" (إش٢٦: ١٢ س).

ولكي نتعلم أن البعض يعاقب هنا، والبعض في الحياة الآتيـــة، والـــبعض الآخر يعاقب في كلتا الحياتين الحاضرة والآتية، لنسمع ما يقوله ق. بولس، في حُكمه على أولئك الذين يشتركون في الأسرار بدون استحقاق: " إذاً أيُّ من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسـد الـرب ودمه" وبعد ذلك أضاف مباشرة: "من اجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضـى وكثيرون يرقدون لأننا لو حكمنا على أنفسنا لِمَا حكم علينا، ولكن إذ قـد حُكـم علينا نؤدب من الرب لكي لا نُدان مع العالم" (١كـو ٢٧-٣٢)، **أتـرى كيـف أن العقاب هنا ينجينا من الدينونة الآتية؟** وعن الرجل الزاني يقول: " أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع" (١كـو٥:٥). هذا أيضاً واضح من مثل لعازر، فإن كان قد فعل أي شر، فهو قد غسله في هذه الحياة، ومن ثم غادر نظيفاً للحياة الأخرى. من قصة المفلوج أيضاً هذا واضح، الذي كان في ضعف لمدة ثمانية وثلاثين سنة، وطرح خطاياه بعيداً من خـلال طول مدة مرضه، لنسمع ما قاله السيد المسيح كبرهان على أنه كان فـي هـذه الحالة بسبب خطاياه : " ها أنت قد بَرئتَ. فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشرُّ " (يو٥:١٤)، واضح من هذه الآية أن بعض الناس يعـاقبون فـي هـذه الحيـاة فيطرحون عنهم خطاياهم بعيداً.

إن البعض في حالة عدم حصولهم على الجزاء الكافي في هذه الحياة لثقـل خطاياهم يعاقبون في كلتا الحياتين الحاضرة والآتية، كبينةٍ على ذلك لنسمع مـا يقوله السيد المسيح عن أهل سدوم، فبعدما قال: "وأية مدينـة دخلتموهـا ولـم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذي لصق بنا من مـدينتكم ننفضه لكم"، قال: "وأقول لكم أنه يكون لسدوم في ذلك اليوم حالة أكثر احتمـالاً (أخف وطأة) مما لتلك المدينة" (لو١٠: ١٠-١٢)، بقوله: "أكثر احتمالاً" أظهر أنهم أيضاً سوف يعاقبون، لكن بأقل شدةً، لأنهم قد سددوا بعضاً من الجزاء في هـذه الحياة الحاضرة.

وعن أولئك الذين لا يعانون من أي ضيق هنا ويأخذون عقابهم الكامل في الحياة الأخرى، نتعلم من قصة هذا الرجل الغنيّ كيف أنه حصُل علـى عقوبـة صارمة في الحياة الأخرى، ولم ينعم حتى بأقل قدر من الصـفح، لأن عقوبتـه

الكاملة تُركِت للحياة الأخرى. وكما هو في حالة الخطاة، يعرَّضون لعقوبة صارمة آتية إن لم يعانوا من أي محنة هنا، كذلك أيضاً يكون بالنسبة للأبرار، فهم يتمتعون بكرامة عظيمة آتية إن تحملوا بعض الضيقات هنا. وكما هو في حالة الخطاة، إن كان هناك أثنين واحد عوقب هنا والآخر لم يعاقب، فالذي عوقب يكون أوفر حظاً من ذلك الذي لم يعاقب، كذلك أيضاً يكون بالنسبة للأبرار، إن كان هناك اثنين واحد تحمل ضيقات عظيمة والآخر تحمل أقل منه، فذلك الذي تحمل ضيقات أكثر يكون أوفر حظاً، لأن الرب "يجازي كل واحد حسب عمله" (مت١٦:٢٧).

الجهاد الروحي والحياة المسترخية:

ماذا بعد؟ قد يسأل شخص ما: " هل يوجد أحد يتمتع براحة في كلتا الحياتين، هنا وهناك على حد سواء؟ هذا لا يمكن أن يكون، هذا مستحيل، غير ممكن أبداً لإنسان كان يتمتع بحياة سهلة مرفهة وثراء ووفرة في هذا العالم، وكان يُشبِع باستمرار كل رغباته بكل طريقة ممكنة، وكان يعيش بحماقة وبشكل عشوائي، أن يتمتع بكرامة في الحياة الأخرى. لأنه إن لم يزعجه الفقر تزعجه الشهوة، ويجرب بسببها وتسبب له وجعاً غير قليل. وإن لم يهدده المرض تهدده حدة الغضب، والغضب يتطلب جهاداً كبيراً للتغلب عليه. وإن لم تختبره التجارب تهاجمه باستمرار الأفكار الشريرة. **أنها ليست بمهمة عادية، أن تكبح رغبة حمقاء، وأن توقف المجد الباطل، وأن تقيد العجرفة، وأن تحجم عن التَرف، وأن تثابر على التقشف، الإنسان الذي لا يفعل هذه الأشياء وأشياء أخرى مثلها لا يستطيع أبداً أن يخلص.** كشهادة على أن أولئك الذين يعيشون في تَرف لا يستطيعون أن يخلصوا، لنسمع ما يقوله بولس عن الأرملة: " وأما المتنعمة فقد ماتت وهي حية " (١ تي ٥:٦)، هذا الكلام قيل عن امرأة إلا أنه ينطبق بدرجة أكبر على الرجل. أوضح السيد المسيح أيضاً أن الشخص الذي يعيش حياة مسترخية لا يستطيع أن يبلغ السماء عندما قال: "ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه" (مت ٧:١٤).

قد يسأل شخص ما: إن كان الطريق كرب وضيق فكيف يدعوه هين وخفيف: "لأن نيري هيّن وحِملي خفيف" (مت١١: ٣٠) ؟، **هو يدعوه كرب وضيق بالنظر إلى طبيعة التجارب، ويدعوه هيّن وخفيف بالنظر إلى رضا وشوق المسافرين**، لأنه من الممكن أن يصير الشيء الغير محتمل بالطبيعة سهلاً عندما نقبله باشتياق، تماماً كالرسل الذين بعد أن جُلِدوا رجعوا فرحين "لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه" (أع ٥: ٤٠)، طبيعة العذابات عادة تجلب ضيق وأسى، لكن شوق أولئك الذين جُلِدوا قهرت حتى طبيعة آلامهم، لهذا السبب يقول بولس الرسول: "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون" (٢ تي ٣: ١٢)، لأنه حتى لو لم يضطهدنا البشر فالشيطان يشن حرباً ضدنا.

نحتاج حكمة عظيمة ومثابرة لكي نواظب بيقظة ووقار على الصلاة، وأن لا نشتهي ممتلكات الآخرين بل نوزع ما لنا على المحتاجين، وأن نرفض ونجحد كل تَرف، سواء إن كان يتعلق بملبس أو بمأكل، وأن نتجنب حب اكتساب المال واختزانه والسُكر والافتراء، وأن نسيطر على لساننا، وأن نبتعد عن الصياح المنافي للأخلاق، "ليُرفع من بينكم كل مرارة وسخطٍ وغضبٍ وصياح وتجديف مع كل خبث" (أف ٤: ٣١)، وأن نمتنع عن الكلام المازح أو الفاضح. يتطلب هذا منك جهداً ليس بقليل لكي تحفظ كل هذه الأمور باحتراس. ولكي نتعلم مدى صعوبة الحياة بالحكمة، ونَدرةِ التدبير الذي يُجيز الاسترخاء، لنسمع ما يقوله ق. بولس: "بل أقمع جسدي واستعبده" (اكو ٩: ٢٧)، قال هذا مشيراً للقوة والجهد التي يجب أن يستعملها أولئك الذين يريدون أن يُعَلِموا أجسادهم الطاعة في كل شيء. **قال السيد المسيح أيضاً لتلاميذه: "في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو١٦: ٣٣)، أي أن هذا الضيق سوف يجلب لكم الغلبة والراحة. الحياة الحاضرة مثل حلبة السباق، في الحلبة وفي المسابقات الرياضية لا يستطيع الشخص الذي يتوق للفوز بالإكليل أن ينعم بالاسترخاء، كذلك أيضاً إن أبتغى أي إنسان أن ينال إكليلاً سماوياً، فليختار الحياة المُجِّدة والشاقة، حتى بعد ما يجاهد هنا لفترة صغيرة يتمتع بكرامة دائمة في الحياة الآتية.**

كم عدد الإحباطات التي تأتي علينا كل يـوم؟ وإلـى إي درجـة تحتـاج الروح أن تكون عظيمة حتى لا تتوقف عن العمل الصالح بسبب نفـاذ الصـبر أو الملل، بل تستمر في تقديم الشكر والتمجيد والعبادة لذلك الذي سـمح لهـذه التجارب أن تهاجمها؟ كم عدد الصعوبات غير المتوقعة التـي تظهـر؟ يجـب علينا أيضاً أن نقاوم أفكارنا الشريرة ولا نسمح لألسنتنا بـالتفوه بـأي شـيء كريه، كأيوب الصديق الذي استمر في تقديم الشكر للّه في أثناء تحملـه البلايـا الكثيرة.

قدم الشكر بدلاً من التجديف:

بعض الناس عندما يتعثرون في أمر ما، أو يُفترى عليهم من قِبَـل أحـد الأشخاص، أو يمرضون بمرض مزمن أو بداء المفاصل أو بصـداع أو بـأي اعتلال جسدي آخر، حالاً يبدأون بالتجديف على اللّه. هم يمتثلون لألم المـرض لكنهم يحرمون أنفسهم من فائدته. ماذا أنت فاعل أيها الإنسان، أتُجـدِّف علـى وليِّك ومخلصك، على المحامي عنك والمحسن إليك؟ ألا ترى أنك تسـقط فـي منحدر شاهق، وتطرح نفسك في حفرة الدمار النهائي؟! هل التجديف يخفف من معاناتك؟ في الواقع أنك تجعل محنتك أشد وأثقل وطأة، لأن الشيطان يجلب كثير من البلايا لأجل هذا الغرض، لكي يقودك أسفل إلى تلك الحفرة، لو رآك مجدفاً سيزيد بكل شغف معاناتك ويجعلها أضخم، حتى بِوخزِه إياك تستسلم مرة أخرى للتجديف، أما إذا رآك تتحمل بكل شجاعة وتقدم الشكر بالأكثر للّه كلمـا زادت معاناتك سوءاً، حالاً يرفع الحصار، إذ يتيقن أن محاصرتك أكثر من ذلك ستكون بلا فائدة. كمثل كلب يجلس عند مائدة، إذا رأى الشخص الذي يأكل، يلقـي لـه بشكل متواصل فضلات الطعام من مائدته، سيمكث بكل إصرار في مكانه، لكن لو توقف الكلب عند المائدة مرة أو مرتين دون أن يحصل على شيء، سـوف يبتعد بعيداً بعد ذلك إذ وجد أن استمرار مكوثه هناك ليس لـه فائـدة. بـنفس الطريقة يُحدِّق الشيطان فينا، فاغراً فاه بشكل مستمر، إن ألقيت له كمـا للكلـب بعض كلمات التجديف، سوف يأخذها ويهاجمك مرة أخرى، لكن لو ثابرت على الشكر، تكون قد أوقفته بالجوع وطردته وقذفته بعيداً عنك.

لكنك قد تقول أنه لا يمكنك أن تظل صامتاً متى وُخِزتَ بالمحن، بالتأكيد لا أمنعك من أن تصدر صوتاً، **قدم الشكر بدلاً من التجديف، وعبادة بدلاً من اليأس. أعترف للرب، أصرخ بصوت عال في الصلاة، أصرخ ممجداً اللّه بصوت مرتفع. معاناتك بهذه الطريقة سوف تخفف، لأن الشيطان سينسحب من أمام شكرك، ومعونة اللّه ستكون بجانبك.** إن جدفت تكون قد أبعدت معونة اللّه عنك بعيداً، وأعطيت للشيطان فرصة ليكون أكثر عنفاً ضدك، وورطت نفسك أكثر في المعاناة، لكن أن قدمت الشكر تكون قد أبعدت مكائد الروح الشرير عنك بعيداً، وجذبت لنفسك عناية اللّه المدافع عنك.

لكن اللسان بحسب العادة كثيراً ما يبدأ بلفظ هذه الكلمة الشريرة (كلمة التجديف). لذلك عندما يبدأ وقبل أن يولِّد الكلمة أقضمه بأسنانك بشدة، لأنه أفضل للّسان أن يتدفق الدم منه الآن بدلاً من أن يتوق لقطرة ماء فيما بعد ولا يمكنه الحصول على هذه الإعانة. وأفضل للّسان أن يتحمل ألماً مؤقتاً هنا بدلاً من التألم الدائم في القصاص الأخير، كلسان هذا الرجل الغنيّ الذي كان يحترق دون أن يحصل على أي إغاثة.

قد أوصاك اللّه أن تحب أعداءك، أتبتعد عن اللّه الذي يحبك؟ أوصاك أن تحسن إلى مبغضيك وأن تبارك لاعنيك، أتتكلم شراً على المحسن إليك والمحامي عنك مع أنك لم تحصل على أي أذى؟ **اللّه غير عاجز عن إعتاقك من هذه التجربة، أليس كذلك؟ لكنه سمح بها لكي يُحسِّن من طباعك.** لعلك تقول: أنظر إلي، أنا في حالة من الضعف والفناء، قد تكون كذلك، لكن هذا ليس سببه طبيعة التجربة بل كسلك الشخصي. أخبرني ما هو الأسهل التجديف أم الشكر؟ ألا يجعل التجديف سامعيك يكرهونك ويطرحهم في اليأس، ثم يسبب لك حزناً شديداً بعد ذلك، أما الشكر فيجلب لك أكاليل كثيرة لأجل هذه الحكمة، وإعجاب كبير من كل إنسان، ومكافأة عظيمة من اللّه؟ لماذا إذاً تُهمِّل ما هو نافع وسهل ومبهج، وعوضاً عن ذلك تسعى وراء ما هو ضار ومؤلم ومتلف؟

بالإضافة إلى ذلك، لو كانت تجربة الفقر أو الضيقات عموماً هي سبب التجديف لكان جميع الذين يعيشون في فقر يجدِّفون، لكن في الواقع كثير من أولئك الذين يعيشون في فقر مدقع يقدمون الشكر باستمرار، بينما آخرون

يتمتعون بثراء ورفاهية لا يتوقفون عن التجديف. بالتالي ليست طبيعة ظروفنا الخارجية هي التي تسبب هذا الأمر بل اختيارنا الشخصي. لهذا السبب أيضاً قرأنا هذا المثل، لكي نعلمك أن **الثروة لا تساعد الإنسان الكسلان، ولا الفقر يضر بالإنسان المجتهد. ولماذا أقول ذلك عن الفقر فقط، بل حتى ولو جاءت كل كوارث البشرية معاً، لن تستطيع أن تهزم أبداً روح الإنسان الحكيم الذي يحب اللَّه، ولا أن تقنعه بالتوقف عن السير في طريق الفضيلة** (ومَثَل لعازر شاهد على ذلك). هكذا أيضاً لن يستفيد الإنسان العابث المنغمس في الملذات من الغنى والصحة والرخاء المستديم أو أي شيء آخر. لذلك دعنا لا نقول بأن الفقر أو المرض أو دنو الأخطار يجبر الناس على التجديف، لأن الذي يقود للتجديف حقاً هو الحماقة لا الفقر، والطيش لا المرض، وغياب العقلانية لا دنو الأخطار، بل هذه الأمور تقود الإنسان الغير يقظ أيضاً إلى جميع الشرور الأخرى.

لطف اللَّه يقتادك إلى التوبة:

قد يتساءل شخص ما: لماذا يُعاقَب البعض هنا والبعض الآخر لا يعاقب هنا قط بل في الآخرة فقط؟ إن عوقب الجميع هنا، لفنينا جميعنا لأننا كلنا تحت طائلة العقوبة. ومن الناحية الأخرى، إن لم يعاقب أحد هنا فمعظم الناس سيصبحون غير مبالين، وسيتشكك الكثير منهم في وجود العناية الإلهية. لأنه إن كان هناك كثيرون لازالوا يجدِّفون بالرغم من رؤيتهم معاقبة الكثير من الأشرار في الحياة الحاضرة، فبأي كلام أبشع سينطقون، إن غاب العقاب هنا؟! وإلى أي مدى سيتمادون في الشرور؟ لهذا السبب يعاقب اللَّه البعض هنا ولا يعاقب البعض الآخر. يعاقب البعض فيختصر طرقهم الشريرة، ويجعل عقوبتهم الآتية أخف أو حتى يعتقهم منها نهائياً، ومن خلال عقابهم ينبه أولئك الذين يعيشون في الشر. والبعض الآخر لا يعاقبه، حتى إذا انتبهوا لأنفسهم وتابوا واحترموا طول أناة اللَّه، يمكنهم بذلك أن يُعتَقوا من العقاب هنا ومن القصاص الآتي أيضاً، لكن إذا استمروا بدون الاستفادة من طول أناة اللَّه وتحمله للشر، سيحصلون على عقوبة أشد بسبب خزيهم الكبير.

لكن إن قال أحد من الذين يدَّعون المعرفة أن أولئك المعاقبين هنا عوقبوا بطريقة غير عادلة لأنهم كان من الممكن أن يتوبوا، نقول له: لو كان اللَّه يعرف بعلمه السابق أنهم سيتوبون ما كان عاقبهم، لأنه إذا كان اللَّه أحياناً يترك بلا عقاب أولئك الذي يعلم مسبقاً أنهم باقين في مسارهم بلا تصحيح، فكم بالأحرى يترك أولئك الذي يعلم أنهم سيستفيدون من إمهاله وطول أناته ويتوبون. هكذا بعقاب البعض هنا، واصطيادهم بشكل مسبق، يجعل اللَّه عقابهم في الحياة الآتية أقل وطأة، وبواسطة عقابهم هنا يفيد الآخرين. ولماذا لا يفعل ذلك لجميع الأشرار؟ لكي يؤدي انتظارهم القَلِق - الناتج من عقاب الآخرين المخيف - إلى تحسنهم، وباحترام لطف اللَّه وتمجيد طول أناته يمكنهم التوقف عن الشر. قد يقول أحد ما: "أنهم لا يتوقفون عن الشر"، ربما لكن اللَّه لا يلام على ذلك بل إهمالهم الذاتي، لأنهم غير راغبين في استخدام مثل هذا الدواء القوي لأجل خلاصهم.

لكي نتعلم أن هذا هو قصد اللَّه لنصغي إلى ما يلي: جاء بعض الناس وأخبروا السيد المسيح كيف أن بيلاطس خلط دماء الجليليّين بالذبائح، فقال لهم: "أتظنون أن هؤلاء الجليليّين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليّين لأنهم كابدوا مثل هذا. كلا اقول لكم. بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون " (لو١٣: ٢-٣). وعن موت الثماني عشر من سقوط البرج قال لهم السيد المسيح نفس الشيء أيضاً. أظهر السيد المسيح بقوله:" أتظنون أن هؤلاء كانوا خطاة أكثر .. كلا أقول لكم" أن الأحياء أيضاً يستحقون نفس العقاب، وبقوله: " إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" أظهر أن اللَّه قد سمح لهم بذلك لهذا الغرض: حتى يمكن للأحياء أن يرتعبوا مما حدث للآخرين، فيتوبوا ويصيروا ورثة للملكوت.

هنا قد يتساءل أحدكم: ما هذا؟! شخص تتم معاقبته لكي يجعلني أنا أفضل؟!، لا بل تتم معاقبته بسبب خطاياه الخاصة، لكنه مع ذلك يصير وسيلة للخلاص لأولئك الذين يلتفتون إليه ويصبحون أكثر اجتهاداً نتيجة لما حدث له. إن أرباب العمل أيضا كثيراً ما يفعلون نفس الشيء، وبضربهم خادم واحد يجعلون البقية تسلك بصورة أفضل بدافع الخوف.

عندما ترى أناساً خطاة تحطمت بهم السفينة أو سحقوا تحت أنقاض منزل، أو احترقوا بنار حتى الموت، أو جُرفوا بواسطة الأنهار، أو فقدوا حياتهم بأي وسيلة أخرى من هذه الوسائل العنيفة، ثم بعد ذلك ترى آخرين يرتكبون نفس الخطايا بل أبشع منها ولا يعانون من أي ضيق، لا تتحير قائلاً: لماذا هؤلاء يرتكبون نفس الذنوب ولا يجوزوا في نفس العواقب؟ لكن فكر ملياً بهذا: إن اللّه سمح لشخص واحد أن يؤخذ ويعرض للموت هكذا مهيئاً له عقوبة أخف في الآخرة - أو حتى معتقاً إياه كليةً - أما الآخر فلم يسمح له بأن يعاني من أي شيء مثل هذا، لكي يعطيه فرصة أن يرجع لصوابه ويصير أفضل بواسطة عقاب الأول، لكن إن بقى في خطيئته سيجمع لنفسه قصاصاً شديداً نتيجة لإهماله، ولا يلام اللّه على عقابه الصارم. أما إن رأيت شخصاً باراً يعاني من ضيقات أو أي محن مما ذكرنا لا تتحير، إذ أن ضيقاته تُعِّد له أكاليل أكثر بهاءً.

مُجمل القول، أن كل عقوبة أرضية، إذا وقعت على الخطاة فأنها تقلل من ثقل الذنب، أما إن حدثت للأبرار فهي تجعل أرواحهم أكثر روعةً، وبواسطة المحن تأتي منفعة كبيرة لكل منهم بشرط تحملها بشكر.

لهذا السبب قصص الكتاب المقدس تحتوي على العديد من هذه الأمثلة، فهي تقدم لنا أبراراً وأشراراً على حد سواء يعانون من الضيقات، حتى يمكن للشخص - سواء إن كان باراً أو شريراً - أن ينتبه للأمثلة ويحتمل تجربته بشجاعة. الكتاب المقدس في عرضه للناس الأشرار، يقدم البعض في وضع سيء والبعض الآخر في وضع مزدهر، ولا يجعلك تقشعر من ازدهار الأشرار، إذ يعرفك ما سيحدث لهم إن لم يغيروا طرقهم، كما حدث لهذا الرجل الغنيّ، وأي نوع من العذاب كان مُعَّد له في الآخرة.

لا يكلل أحد إن لم يُجاهد:

ألا يمكن التمتع بالراحة هنا وهناك في الآخرة أيضاً؟ هذا غير ممكن بل مستحيل، لأن البار يحيا حياة مجاهدة. ماذا عن إبراهيم؟ من تحمل هذا القدر من المحن مثله؟ ألم يتغرب عن بلاده؟ ألم ينفصل عن جميع أهل بيته؟ ألم يتحمل

الجوع في أرض غريبة؟ ألم يرتحل بشكل مستمر كهائم من بابل إلى بلاد ما بين النهرين، ومن هناك إلى فلسطين، ومن هناك لمصر؟ وماذا يقال عن النزاع بشأن زوجته، والحروب مع البربر، وأسر أقربائه، ومشاكل أخرى كثيرة كهذه؟ وعندما حَصُل على ابنه، ألم يتحمل التجربة الأكثر شدة من جميع التجارب، عندما أُمِر بأن يُقدم بيديه ابنه الحبيب الذي انتظره طويلاً محرقة؟ ماذا عن إسحق نفسه الذبيحة؟ ألم يُدفع بشكل مستمر من قبل جيرانه؟ ألم يكن على وشك فقد امرأته، كما حدث لأبيه، ألم يمكث مدة طويلة بدون أطفال؟ وماذا عن يعقوب الذي تربى في بيته؟ ألم يتحمل ضيقات أكثر شدّة من جده؟ ولكي لا نطيل حديثنا بذكر كل شيء لنسمع ما يقوله عن حياته كلها: " قليلة وردية كانت أيام سني حياتي ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي " (تك٤٧:٩)، والذي يرى ابنه (يوسف) جالساً على العرش الملكي متمتعاً بمثل هذه العظمة، ألا يتذكر تجاربه السابقة؟ فهو قد أُنهِك بسبب المعاناة حتى أنه لم ينسى المشاكل السابقة على الرغم من هذا الرخاء.

وماذا عن داود؟ كم من الضيقات تحملها؟ ألم يتغنى بنفس أغنية يعقوب عندما قال: " أيام سنينا هي سبعون سنة وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب وبلية " (مز٩٠:١٠)، وماذا عن أرميا؟ ألم يلعن اليوم الذي ولد فيه بسبب تعاقب الكوارث (أر٢٠:١٤)؟ وماذا عن موسى نفسه؟ ألم يقل في وهن عزيمته: " فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً " (عد ١١:١٥)، وإيليا أيضاً الذي روحه عالية كعلو السماء، والذي فتح كوى السماوات، ألم يواصل النوح أمام اللّه بعد العديد من المعجزات قائلاً : " خُذ نفسي مني لأنني لست خيراً من آبائي "(١مل ١٩:٤). ولماذا أذكر كل قصة من هذه القصص؟ فبولس الرسول جمعهم كلهم معاً وعَبر عليهم قائلاً: " طافوا في جلود غنم وجلود معزى مُعتازينَ مكروبين مُذلين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم " (عب١١: ٣٧، ٣٨).

إذاً بكل تأكيد، من الضروري للشخص الذي يرجو أن يسُر اللَّه وأن يكون مقبولاً ونقياً أمامه، أن لا يسعى وراء حياة مسترخية زلقة منغمسة في الملذات، بل وراء حياة مجاهدة تئنُ من كثرة الكد والعرق، لأنه لا أحد

يكلل - كما يقول بولس - إن لم يجاهد قانونياً (٢تي٢:٥)، وفي موضع آخر يقول: "وكل من يجاهد يضبط نفسه في كل شيء" (١كو٩:٢٥)، يضبط نفسه في الكلام وفي النظر، متفادياً الكلمات البذيئة والشتيمة والتجديف والمجون. من كلمات ق. بولس نتعلم أنه حتى لو لم تأت علينا تجارب من الخارج، يجب علينا أن نُدرب أنفسنا كل يوم بالصوم والتقشف والغذاء الرخيص والمائدة المقتصدة، متجنبين على الدوام التَرف، وإلا فلن يمكننا أن نسر اللَّه.

لا تدع أي أحد يقول لك تلك الكلمات العقيمة: بأن هذا أو ذاك حصل على الأشياء الجيدة في هذه الحياة الحاضرة كما في الآتية، هذا لا يمكن أن يحدث لأولئك الذين عندهم ثروة ورفاهية مع الخطيئة. وإن كان يجب علينا أن نقول هذا عن أحد ما، يمكننا قوله عن أولئك الذين هم في ضيقات ومحن، إذ عندهم الأشياء الجيدة لكلتا الحياتين الحاضرة والآتية، لهم الأشياء الجيدة للحياة الآتية عندما يتمتعون بمكافآتهم، ولهم الأشياء الجيدة للحياة الحاضرة عندما يتغذون بالرجاء دون أن يلتفتوا لضيقهم الحاضر في ترقبهم للأفراح القادمة.

لن تساعدك فضائل الآخرين:

لنسمع ما يلي، إبراهيم يقول: " وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت"، حسناً قال داود: "الأخ لن يفدي الإنسان فداءً ولا يُعطي اللَّه كفارة عنه" (مز٤٩:٧)، لأن ذلك غير ممكن سواء إن كنت أخ أو أب أو ابن. إبراهيم دعا الرجل الغنيّ: يا ابني، إلا أنه لم يستطع أن ينفذ واجب الأب، والرجل الغنيّ دعا إبراهيم : يا أبي، إلا أنه لم يستطع أن يتمتع بما يتوقعه أي ابن من رغبة أبيه الحسنة. هذا يعلمنا أن لا العلاقة العائلية ولا الحب ولا التعاطف ولا أي شيء آخر يمكنه أن يساعد الشخص الذي غُرِرَ به بواسطة حياته الخاصة.

أقول هذا لأن الكثير من الناس عندما ننصحهم بأن يعتنوا بأنفسهم وأن يتسموا بالاعتدال، لا يلتفتوا للنصيحة بل يطرحونها عنهم بسخرية

قائلين: " أنا واثق، أنك ستكفلُني في ذلك اليوم، لست خـــائف"، وآخــر يقــول: " لي شهيد بمثابة أبي"، وآخر: " لي أسقف في مكانة جدي"، وآخرون يقــدمون كل أعضاء عائلتهم نيابة عنهم. لكن كل هذه المزاعم باطلة لأن فضائل الآخرين لا تستطيع أن تساعدنا في ذلك اليوم. تذكر أولئك العذارى اللواتي لم يشــاركن زيتهن مع الخمسة الأخريات، الخمس عذارى الحكيمات دخلن غرفة العــرس، أما الباقيات فأغلق عليهن الباب (مت ٢٥:١٠). أنه شيء عظيم أن تحــوز علــى رجاءك في النجاة بواسطة أعمالك الصالحة، فأبداً لن يساندنا أي صــديق فــي الآخرة. لأنه إذا كان اللّٰه قد قال لأرميا النبي: "لا تُصلِّ لأجــل هــذا الشــعب" (أر٧:١٦) مع أنه كان عنده القدرة على تغيير طرقهم، فكــم بــالأكثر ســيقول نفس الشيء في الآخرة. ماذا تقول؟ أبوك شهيد؟ حسناً، لكن هذه الحقيقة ذاتهــا تدينك بالأكثر لأن لك مثالٌ للفضيلة في بيتك، ومع ذلك تظهر غيــر مســتحق لفضيلة أبيك. ألك صديق نبيل وممتاز؟ حسناً، إلا أنه لن يســتطيع أن يســاندك في ذلك اليوم.

كيف إذاً يقول الرب: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلــم حتــى إذا فنيــتم يقبلونكم في المظال الأبدية" (لو١٦:٩)، ليست الصداقة هنا هي التي ستكفل نفسك بل فعل الصدقة. لو كانت الصداقة في حد ذاتها يمكنها أن تكفلك لاكتفى بقوله: أصنعوا أصدقاء لأنفسكم، لكنه أضاف "بمال الظلم" مظهراً أن الصداقة وحدها لا تكفلنا، (إذ ربما يقول أحد: أستطيع أن أصنع أصدقاء بدون المال بل أفضل حقاً عن ما سأصنعه بالمال) لكن لكي يعلمك أن العمل الصالح وفعل الصــدقة هــو الذي يكفلك، لذلك حثك أن يكون لك ثقة لا في صداقة القديسين بل في الصداقة المكتسبة بواسطة المال.

بمعرفتنا كل هذه الأشياء أيها الأحباء، لنسهر على أنفسنا بكل عنايــة. إن عوقبنا لنقدم الشكر. إن كنا نحيا في ازدهار، لنرجع لصــوابنا نتيجــة لعقــاب الآخرين، ونقدم الشكر مع الندم والتوبة والاعتراف المستمر، ونجعــل حياتنــا آمنة. وإن كنا قد أخطأنا بأي شيء في هذه الحياة الحاضرة، لنطرح عنا كل إثم، ونغسل بغيرة كبيرة كل شائبة من حياتنا، ولندعو اللّٰه حتى يحســبنا مســتحقين للذهاب إلى ذلك الموضع عند إطلاقنا من هذه الحياة، فنكون مع لعازر لا مــع

الرجل الغنيّ، فنتمتع بحضن البطريرك ونُعيِّد بالأمور المجيدة الأبديـــة. ليتنـــا جميعاً نحقق هذا، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح الذي له المجد مـــع أبيه والروح القدس، إلى دهر الدهور آمين.

العظة الرابعة

اعترف بخطاياك

فتتبرر

" إن اعترفنـــا بخطايانـــا

فهـــو أمـــينٌ وعـــادلٌ،

حتـــى يَغفـــر لنـــا خطايانـــا

ويُطهِّرنـــا مِـــنْ كُـــلِّ إثـــم"

(١يو١:٩)

العظة الرابعة

اعترف بخطيئتك فتتبرر

كلمة اللَّه ينبوع لا ينضب:

اليوم يجب أن نكمل مثل لعازر، ربما تعتقد أننا قد أتممناه كله، لكنني لن أتوقف قبل جني كل شيء يمكنني أن أجده، فالمُزارع عند حصده للكرم لا يتوقف عن العمل حتى يقطع جزوع العناقيد أيضاً، وبما أنني مازلت أرى بعض الأفكار مختفية تحت الحروف، وكأنها مخبأة تحت الأوراق، هيا بنا الآن لنحصد تلك أيضاً إلى التمام، مستخدمين هذه العظة بدلاً من المنجل. إن الكرم بعد حصاده يبدو عار من الثمر وتبقى فيه الأوراق فقط، أما كرم الكتاب المقدس الروحي فمختلف، إذ حتى ولو أخذنا كل شيء يمكننا أن نجده، إلا أن الجزء الأكبر يظل متبقياً وراءنا. **حقاً تكلم الكثير قبلنا عن هذا المثل وسيتكلم الكثير أيضاً بعدنا، إلا أنه لن يستطيع أحد أن يفرغ كل غناه، فهذه هي طبيعة تلك الغزارة، كلما تحفر أكثر عمقاً كلما تتدفق أمامك أفكار مقدسة أكثر، إذ أنه ينبوع لا ينضب.**

كان يجب أن ندفع لكم هذا الدين (بتكملة مثل لعازر) في اجتماعنا الأخير، إلا أننا لم نرى من المناسب أن نعبر على الأعمال البارة للشهيد بابيلاس المبارك ورفقائه الشهيدين البارين[٢٤]، لذلك أرجأنا هذا القسط حتى هذا اليوم لتسديده كاملاً. هيا بنا بعد أن قدمنا المدح المناسب لآبائنا - ليس بحسب استحقاقهم بل بحسب قدرتنا – نقدم لكم الرصيد المتبقي لهذا الدرس، ولا تأخذوا راحة حتى نصل إلى النهاية.

لا عُذر للخاطئ يوم الحساب:

سوف نستكمل العظة من حيث تركناها قبلاً، أين تركناها؟ عند الهوة التي تفصل بين الأبرار والأشرار، عندما قال الرجل الغنيّ: "أرسل لعازر .."، ثم قال

---

[٢٤] القديس بابيلاس أسقف أنطاكية ، إستشهد سنة ٢٥٠م، والشهيدين الذي يذكرهم هنا ذهبي الفم هم يوفنتيوس ومكسيمينوس استشهدا في عصر الإمبراطور يوليانوس سنة ٣٦٢م.

له إبراهيم: "بيننا وبينكم هوَّةٌ عظيمةٌ قد أُثبِتت، حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو١٦:٢٦). كُنا نُظهر باستفاضة - بفضل لطف اللَّه المحب - أنه يجب أن يكون رجاؤنا في الخلاص معتمداً على أعمالنا الصالحة الخاصة دون الاعتماد على آبائنا وأجدادنا وأسلافنا أو أقربائنا وأصدقائنا وجيراننا، لأنه إن كان الأخ لا يفتدي أخاه، فهل يفتديه إنسان آخر؟ فمهما كانت الطلبات والتضرعات التي يقدمها أولئك الذين غادروا هذه الحياة بذنوبهم، فإنها ستصدر عبثاً وبلا جدوى منذ ذلك الحين فصاعداً. الخمس عذارى استعطين زيتاً من رفقائهن ولم يحصلن عليه[٢٥]. الرجل الذي دَفَن وزنته في الأرض قدم الكثير من الأعذار لكنه مع ذلك حُكِم عليه[٢٦]. وأولئك الذين لم يطعموه وهو جوعان ولم يسقوه وهو عطشان، بالرغم من أنهم اعتقدوا أيضاً أنهم سيتم تبريرهم بسبب الجهل، إلا أنهم أيضاً لم يحصلوا على صفح أو عفو[٢٧]. والبعض الآخر لم يكن عنده شيء يقوله، كذلك الرجل الذي كان يلبس ملابس قذرة (ليس عليه لباس العرس)، فعندما طُلِب للمحاسبة سكت[٢٨]. ليس ذلك الشخص فقط بل أيضاً ذلك الذي تذكر دين جاره وطلب تسديد المائة دينار، عندما دانه سيده على هذه القسوة والوحشية لم يكن لديه شيئاً يقوله[٢٩].

واضح من كل هذه الأمثال، أنه لن يساعدنا شيء في الآخرة إن لم يكن لدينا أعمال صالحة، فسيَّان سواء إن قدمنا طلبات وتضرعات أو إن بقينا صامتين، حُكم الجزاء والقصاص سيأتي علينا. هكذا التمس هذا الرجل الغنيّ أيضاً طلبيْن من إبراهيم وفشل في كليهما. أولاً قدَّم تضرعاً من أجل نفسه

---

(٢٥) " فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكنَّ فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا ولكنَّ بل اذهبن إلى الباعة وابتعن لكنَّ " (مت ٢٥:٨).

(٢٦) " يا سيد عرفت أنك إنسان قاسٍ، تحصد حيث لم تزرع، وتجمع حيث لم تبذر. فخِفتُ ومَضيت وأخفيت وزنتك في الأرض. هوذا الذي لك. فأجاب سيده وقال له: أيها العبد الشرير والكسلان، .... اطرحوه إلى الظلمة الخارجية " (مت ٢٥: ٢٤-٣٠).

(٢٧) " يا رب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً .. ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر، فبي لم تفعلوا " (مت٢٥: ٤٤،٤٥).

(٢٨) " فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العُرس؟ فسكت " (مت ٢٢:١٢).

(٢٩) " فدعاه حينئذ سيِّده وقال: له أيها العبد الشرير، كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إليَّ. أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتُك أنا؟ وغضب سيده وسلَّمه إلى المعذبين حتى يوفي كل ما كان له عليه " (مت ١٨: ٣٢-٣٤).

عندما قال: "أرسل لعازر"، ثم بعد ذلك قدَّم التماساً ليس من أجل نفسه بل من أجل إخوته، لكنه لم يحصل على أي منهما. الأول كان مستحيلاً أما الثاني - الذي لمصلحة إخوته - فكان غير ضرورياً. دعونا نستمع بانتباه إلى الكلمات ذاتها.

عندما يُخرج الحاكم رجلاً مذنباً إلى وسط السوق، ويجمع الناس حوله، ويبدأ بفحص قضيته، يسرع كثير من الناس بتلهف شديد راغبين في الاستماع لأسئلة القاضي وإجابات الشخص المُدان، كم بالأكثر ينبغي علينا نحن أن نسمع بكل دقة إلى ما يطلبه هذا الرجل المُدان - أقصد الرجل الغنيّ في حالتنا هذه - وما يجاوبه به القاضي العادل بواسطة إبراهيم، إذ أن البطريرك مع أنه هو الذي نطق بالكلام إلا أنه لم يكن هو الذي يحكُم. في قاعات المحاكم العالمية، عند فحص البعض كلصوص أو قتلة، يحجزهم القانون بعيداً عن نظر القاضي، ولا يسمح لهم بأن يسمعوا صوته كنوع من الإهانة، بل يحمل رسول أسئلة القاضي وإجابات المُدَّعى عليهم. هذا ما حدث في مثلنا أيضاً، فالرجل المُدان لم يسمع اللَّه يكلمه مباشرة بل كان إبراهيم هو الرسول الذي حمل كلمات القاضي للمتهم. لم يقل هذا الكلام من سلطته الذاتية، بل قرأ القوانين المقدسة للرجل وتكلم بالرفض الآتي من فوق، لهذا السبب لم يقدر الرجل الغنيّ أن يقدم أي إجابة.

ارسموا هذا المثل في قلوبكم:

أني أتمهل قصداً في هذا المثل، ولن أتركه بالرغم من أن هذا هو اليوم الرابع، حيث أنني أرى منفعة عظيمة تأتي من هذا النِقاش، للغني كما للفقير، لأولئك الذين ينزعجون من ازدهار الأشرار ومن فقر وضيقات الأبرار. لا شيء يزعج الناس بصورة بالغة ويصدم أغلبيتهم مثل مشاهدة الأغنياء الذين يعيشون في شر يتمتعون بقدر كبير من الحظ السعيد، بينما الأبرار الذين يعيشون في الفضيلة مُجرَّبين بفقر مدقع ومتحملين تجارب عديدة أخرى ربما أسوأ حتى من الفقر. لكن هذا المثل كاف لكي يقدم لنا الأدوية، فهو يقدم ضبط النفس للغني، ويقدم عزاءً للفقير، يُعلِّم الغنيّ أن لا يكون مغروراً، بينما يعزي الفقير في وضعه الراهن، يحث الغنيّ أن لا يتفاخر عندما يكون لا يدفع ثمن شره في هذه

الحياة، لأن هناك عقوبة شديدة تنتظره فيما بعد، ويطالب الفقراء بأن لا ينزعجوا بسبب رخاء الآخرين، ولا يظنوا أن تلك الشئون الإنسانية هي بلا عناية إلهيــة، عندما يرون أن نصيب البار رديئُ في هذه الحياة بينما الشرير والبغيض يتمتع بنصيب سعيد مستمر، كلاهما سيحصل على استحقاقه فيما بعد، الأول ســيربح إكليلاً عوضاً عن صبره ومثابرته، أما الثاني فسيحصل على العقوبة والقصاص مقابل شره.

أيها الأغنياء والفقراء أرسموا هذا المثل، أرسموه أيها الأغنياء على جدران بيوتكم، أما أنتم أيها الفقراء فارسموه على جدران قلوبكم، وإن طُمِّست معالمــه في أي وقت نتيجة للنسيان أرسموه مرة أخرى بذاكرتكم. أو بالأحرى أرســموه أنتم أيضاً أيها الأغنياء في قلوبكم بدلاً من بيوتكم، واحملوه معكم بشكل مستمر. سيكون مدرسة لكم والدرس الأول لكل حكمة.

لو أن هذا المثل مُصورًّ في قلوبنا على الدوام، أفراح هذا العالم لن تكــون قادرة على نفخنا بالغرور، ولا أحزانه ستكون قــادرة علــى وهــن عزيمتنــا وإحباطنا، لكننا سنتصرف أمام كلا الوضعين كأمام الصور المرســومة علــى الحيطان. عندما نرى صورة الرجل الغنيّ وصورة المسكين مرســومة علــى الحيطان، لا نحسد الأول أو نتجاهل الثاني لأن ما نراه مجرد رسم وخيال وليس حقيقة واقعية، كذلك أيضاً إن تعلمنا الطبيعة الحقيقية للثــراء والفقــر، وللمجــد والهوان، ولكل الأوضاع المشرقة والكئيبة الأخرى، سوف نتحرر من الانزعاج الذي يسببه كل هذا فينا، لأن كل هذه الأشياء أكثر خداعاً من الظلال. **الإنســان النبيل ذو الروح السامية لا ينتفخ بسبب أي مــن هــذه الأوضــاع المتألقــة واللامعة، وكذلك لا يُحبط نتيجة لأي من الظروف الوضيعة والمحتقرة.**

الإيمان بكلام اللّه:

الآن حان وقت لكي نسمع بقية كلمات الرجل الغنيّ: "أسألك (أي ألــتمس، أتضرع، أتوسل) إذاً يا أبَتِ، أن تُرسله إلى بيت أبي، لأن لي خمسة إخوة، حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. " (لو١٦:٢٧)، توسل من أجل الآخرين بعد أن فشل في الحصول على ما سأله لنفسه. أترى كيف صــار

طيباً وودوداً نتيجة لعقوبته. الرجل الذي احتقر لعازر عندما كان حاضراً عنده، الآن يهتم بآخرين غائبين عنه. الرجل الذي تجاهل الشخص الذي كان مطروحاً أمام عينيه، الآن يتذكر أولئك الذين لا يراهم ويتوسل بغيرة واحترام كبير حتى يمكنهم أن يحصلوا على بصيرة ويتفادوا الشرور التي ستحدث لهم. يطلب إرسال لعازر لبيت أبيه - المكان الذي كان فيه حلبة صراع لعازر وساحة فضائله - قائلاً: أسمح لأولئك الذين شاهدوه في صراعه أن يروه مُكللاً بالنصر، اجعل الشهود على فقره وجوعه وبلاياه التي لا تحصى يصيرون شهوداً على كرامته وتجليه وعلى كل مجده، وعندما يتعلمون أن شئون البشر لا تتوقف مع الحياة الحاضرة، يمكنهم إعداد أنفسهم حتى يستطيعوا النجاة من هذه العقوبة والقصاص.

بماذا أجاب إبراهيم؟ "عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم"، وكأنه يقول: "أنت لا تهتم بأخوتك بالقدر الذي يهتم به اللّه الذي خلقهم وأقام من أجلهم مُعلمين كثيرين للنصح والإرشاد والتحذير"، وماذا قال الغنيّ في المقابل؟: " لا يا أبي إبراهيم، بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون".

هذا ما يقوله أغلب الناس، فالآن هناك من يقول: من جاء إلينا من العالم الآخر؟ من بُعِثَ إلينا حياً؟ من أخبرنا عن ما يحدث في الجحيم؟ كم عدد الأسئلة الكبيرة مثل هذه سألها الرجل الغنيّ لنفسه عندما كان يحيا حياة مُرفهَة؟ لم يسأل بالفعل أن يقوم أحد من الأموات، لكنه عندما سمع الكتاب المقدس أخذ كلامه بازدراء وسخر منه معتبراً إياه مجرد روايات. مِن هذا الذي أختبره في نفسه، كوَّن الغنيّ هذا الرأي الذي يتعلق بأخوته قائلاً: هم أيضاً عندهم هذه الشكوك، فإن ذهب إليهم واحد من الأموات، لن ينكروه ولن يسخروا منه، بل سينتبهون لما يقوله.

وبماذا أجاب إبراهيم؟ "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يُصَدِّقون" (لو١٦:٣١). برهن اليهود على صحة هذه المقولة، فذاك الذي لا يسمع للكتاب المقدس لن يسمع حتى لأولئك الذين يقومون من الأموات، فاليهود لم يسمعوا لموسى والأنبياء، ولذلك عندما رأوا بعض الأموات يقومون لم يؤمنوا أيضاً، وبدلا من ذلك حاولوا مرة أن يقتلوا

لعازر[٣٠]، وفي المرة الأخرى اعتدوا على الرسل بالرغم من قيامة الكثير من الأموات في ساعة الصلب[٣١].

أيضاً لكي تتعلم أن تعاليم الأنبياء هي أكثر استحقاقاً للإيمان من تقرير أولئك الذين يقومون من الموت، فكل إنسان منتقل هو في الحقيقة مجرد خادم، أما كلام الكتاب المقدس هو كلام الرب سيد الكل، فإن قام شخص من الأموات أو حتى نزل ملاك من السماء، الكتاب المقدس هو الأكثر كفؤاً للإيمان عن أي منهم، لأن سيد الملائكة رب الأحياء والأموات هو ذاته الذي أعطى الكتاب المقدس سلطته.

إضافة إلى ذلك، نستطيع أن نثبت بالمقارنة مع محاكم هذا العالم أن هؤلاء الذين يطلبون مجيء الأموات من العالم الآخر يسألون عن شيء غير ضروري، لأن الجحيم لا يظهر لغير المؤمن، هو شيء واضح وجلي للمؤمن لكنه لا يظهر لغير المؤمن. نسمع كل يوم في المحاكم عن أشخاص تتم معاقبتهم، واحد تُصادر ممتلكاته من قِبَل الدولة، وآخر يُحكم عليه بالعمل في المناجم، وآخر يُحكم عليه بالموت حرقاً، وآخر يهلك بنوع آخر من العقوبة والقصاص. وبالرغم من أن فعلة الشر الأردياء والسحرة يسمعون عن تلك العقوبات إلا أنهم لا يرجعون إلى صوابهم، ما أقوله هو أن أولئك الذي لم يختبروا بعد تلك العقوبات لا يرجعوا إلى صوابهم، بل حتى أولئك الذين يقبض عليهم ثم يهربون من العقاب - الذين حفروا مخرجهم من السجن واستطاعوا الفرار- في أغلب الأحيان يرجعون مرة أخرى لنفس طريقة حياتهم، ويرتكبون جرائم ربما أفظع من قبل.

لذلك ليتنا لا نلتمس السماع من الموتى ذلك الذي يعلمه لنا الكتاب المقدس كل يوم بأكثر وضوحاً، لأنه إن عرف اللّه أن الأحياء سوف يستفيدون من إقامة الموتى، ما كان اللّه - ذلك الذي يعمل كل شيء لمنفعتنا - قد أهمل أو تغافل مثل هذه المنفعة الكبيرة. علاوة على ذلك، إذا كان الأموات سوف يقومون بشكل

---

(٣٠) " فتشاور رؤساء الكهنة ليقتلوا لعازر أيضاً، لأن كثيرين من اليهود كانوا بسببه يذهبون ويؤمنون بيسوع " (يو١٢: ١٠، ١١).

(٣١) " والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الرّاقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين " (مت ٢٧: ٥٢، ٥٣).

مستمر ويخبروننا بكل شيء عن العالم الآخر، مع مرور الوقت حتى هذا سنستقبله باستخفاف.

بالإضافة إلى أن الشيطان بذلك سيمكنه بكل سهولة إدخال تعاليم رديئة، يمكنه أن يظهر خيالات في أحوال كثيرة، أو حتى يجهز أشباحاً لكي يحاكي الموت والدفن، ثم يظهرهم مرة أخرى وكأنهم قاموا من الموت، وبواسطتهم يجعل أي شيء يريد أن يضلل به عقول الناس موثوق فيه، لأنه إذا كان في الوقت الحاضر الذي لا يحدث فيه شيء من هذا، عندما تظهر أحلام بشبه المنتقلين لبعض الناس، كثيراً ما ينخدعون بها، فكم بالأكثر يمكن للروح الشرير أن يحيك حيلاً كثيرة ويبتكر قدراً كبيراً من الخداع في حياتنا، لو حدث هذا وتم إقناع عقول البشر بأن كثير من المنتقلين عادوا مرة أخرى. لهذا السبب أغلق اللَّه الأبواب، ولا يسمح لأي واحد من المنتقلين بالعودة لإخبارنا عن ما حدث في الحياة الآتية، لئلا يأخذ الشيطان هذه كنقطة انطلاق ويقدم كل تعاليمه الخاصة.

عندما كان هناك أنبياء أقام الشيطان أنبياءً كذبة، عندما كان هناك رسلاً أقام رسلاً كذبة، عندما ظهر المسيح أقام مسحاء كذبة، عندما أُعلِنت التعاليم الصحيحة قدمَّ الشيطان تعاليم فاسدة، زارعاً الأعشاب الضارة في كل مكان(٣٢)، فلو كان قد حدث هذا أيضاً لكان حاول أن يحاكي هذا أيضاً بأدواته الخاصة، لا بإقامة الموتى حقاً بل بخداع بصر المشاهدين بنوع ما من الخدع والأوهام السحرية أو حتى بجعل بعض الأشخاص يتظاهرون بالموت - كما قلت قبلاً - وبذلك يقلب كل شيء رأساً على عقب ويصنع تشويشاً كاملاً.

لكن اللَّه الذي يعلم كل هذه الأشياء منع هذا الهجوم لإنقاذنا، ولم يسمح لأي أحد أن يأتي من العالم الآخر ويتكلم بما هناك للأحياء. بهذا يعلمنا اللَّه أن نعتبر الكتاب المقدس هو المصدر الأجدر بالثقة من الكل، إذ فيه أرانا أعمال مقنعة أكثر بكثير من إحياء الموتى. غير العالم بأكمله، طرد الإثم وقَدمَّ الحق، تمم كل ذلك بواسطة صيادي سمك عاديين، وزودنا ببراهين كافية على تدبيره الإلهي في كل مكان.

---

(٣٢) " وفيما الناس نيام جاء عدوُّه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى " (مت١٣: ٢٥).

لذلك دعنا لا نفكر بأن شئوننا تنتهي بالحياة الحاضرة بل لنؤمن أنه سيكون هناك بكل تأكيد محاكمة ومجازاة على كل أمر يحدث هنا فيما بيننا. هذا شيء جلي وواضح لكل إنسان، الجميع يتفق عليه حتى اليهود والوثنيون والهراطقة. حقاً لا يفهم الكل القيامة بشكل صحيح إلا أن الجميع يتفقون على الحساب والدينونة ومحاكم العالم الآتي، وأن هناك مجازاة في الآخرة على ما تم عمله هنا. إن لم يكن ذلك هكذا، فلماذا إذاً بسط اللّه سماءً هذا اتساعها، ونشر الأرض من أسفل، ومدَّد البحر، وصبَّ الهواء، وأظهر مثل هذا التدبير الإلهي، إن كان لا ينوي أن يصوننا إلى النهاية؟

ألا ترى كم العدد الذي ينتقل بعد حياة فاضلة وبعد ضيقات كثيرة لا تعد، دون أن يتلقى ما يستحقه من الأمجاد؟ ومن الناحية الثانية، آخرون ينتقلون بعد إظهار شرور كثيرة، بعد سرقة ممتلكات الآخرين، وسلب وقمع الأرامل والأيتام، والتمتع بالثراء والرفاهية وأشياء كثيرة لا تعد، بدون أن تصادفهم حتى أي من المشاكل العادية. فمتى إذاً سيحصل الأبرار على المكافأة مقابل فضائلهم، ومتى سيتحمل الأشرار القصاص نتيجة لشرورهم، إن كانت شئون البشر تدوم فقط للحياة الحاضرة؟!

الكل يتفق على ذلك: إن كان اللّه موجود - وهو بالحقيقة موجود - فهو عادل، وإن كان اللّه عادل فهو سيجازي كل واحد بحسب استحقاقه، وإن كان اللّه سيجازي كل واحد بحسب استحقاقه، وبما أنه لم يحصل أحد على مجازاته في هذه الحياة - لا بالعقوبة على الشرور ولا بالمكافأة على الفضيلة - فمن الواضح أن هناك وقت سيحصل فيه كل إنسان على مجازاته المناسبة.

التوبة والاعتراف بالخطيئة:

لماذا أوجد اللّه في عقل كل واحد منا مثل هذا القاضي الرزين واليقظ بشكل مستمر؟ أعني الضمير. لا يوجد قاضي بين القضاة لا ينام مثل الضمير. قد يُفسَد القضاة الظاهرون بالمال، وقد يتأثروا بالتملق، ويمكن استمالتهم لإعطاء أحكام خاطئة بالترهيب، وعوامل أخرى كثيرة تفسد قراراتهم المستقيمة، أما محكمة الضمير فلا تذعن لمثل هذه التأثيرات، سواء إن استخدمت رشوة أو تملق أو

تهديد أو فعلت أي شيء آخر، هذه المحكمة سوف تُعطي حكماً عادلاً ضد مقاصدك الشريرة. الشخص ذاته الذي يرتكب الإثم يُدين نفسه حتى ولو لم يتهمه أحد. الضمير لا يفعل ذلك مرة أو مرتين بل مرات كثيرة ويستمر هكذا خلال الحياة بأكملها، وحتى إذا عبر وقت طويل، لا ينسى أبداً ما حدث، بل حتى أثناء ارتكاب الخطيئة، وقبل وبعد حدوثها، يقف الضمير ضدنا كمتّهم عنيف خصوصاً بعد الفعل. في أثناء فعل الخطيئة لا نلاحظ ذلك بشكل قوي إذ نكون سكارى بواسطة اللذّة، لكن بعد إتمامها وخصوصاً بعد انطفاء اللذّة يقع علينا مهماز الندم اللاذع. كعكس ما يحدث للنساء الحوامل، فقبل الولادة يكون هناك جهد كبير لا يطاق وآلام حادّة تعذبهن، لكن بعد الولادة يأتي الفرج حينما يولد الطفل من خلال الألم. الأمر مختلف في حالة الخطيئة، فطالما نحن في المخاض ونحمل أغراضنا الفاسدة، نأخذ لذّة ونُمتّع أنفسنا، لكن حينما نكون قد ولدنا الطفل البغيض أي الإثم نبدأ في المعاناة عند رؤية نسلنا المخزي، ثم نُعذَّب بشكل أشد وطأة من المرأة الحامل. **لهذا السبب أتوسل إليك أن لا تقبل الرغبة الفاسدة من بدايتها الأولى، وإن قبلتها يجب عليك أن تخنق بذورها من الداخل، أما إذا كنت أكثر إهمالاً للدرجة التي تمتد فيها الرغبة الفاسدة إلى فعل، فيجب عليك أن تقتلها عن طريق تبكيت الذات والدموع والاعتراف.**

لا شيء أكثر قتلاً للخطيئة كتبكيت الذات وإدانتها بالتوبة والدموع. هل حكمت على خطيئتك؟ أطرح عنك هذا الحمل الثقيل. من الذي يقول هذا؟ اللّه ذاته الذي سوف يديننا: "اعترف أولاً بخطاياك لكي تتبررّ" (إش٤٣: ٢٦ س). أخبرني، لماذا تخجل؟ لماذا تستحي أن تعترف بخطاياك؟ ... اعترف للسيد الرب الذي يرعاك ويصونك، واظهر أمام الطبيب جرحك، وحتى إن لم تعترف، هو لا يجهلها لأنه يعرف كل شيء حتى قبل حدوثه، فلماذا إذاً لا تعترف؟ هل يصير ذنبك أكثر ثقلاً بسبب إدانتك لذاتك؟ لا بل على العكس يصير أسهل وأخف وطأة، لهذا السبب **يريدك الرب أن تعترف، لا لكي يعاقبك بل لكي يغفر لك، لا لكي يكتشف خطيئتك – إذ هو يعلمها مسبقاً – بل لكي تكتشف أنت مقدار الدَّين الضخم الذي يسامحك عنه، إن لم تُقرُّ بضخامة الدَّين لن تكتشف غنى نعمة اللّه.**

لهذا السبب وضع اللّه فينا ضميراً أكثر محبةً من الوالد، لأن الأب الـــذي يوبِّخ ابنه مرة أو مرتين أو حتى ثلاثة مرات أو عشر مرات عندما يرى الابــن باقياً على حاله بلا تصحيح، يتوقف عن ذلك ويحرمه من الميراث، ويطرده من البيت ويقطعه من العائلة، لكن الضمير لا يفعل ذلك، فسواء إن تكلــم مــرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو عدد مرات لا تحصى، ولم تنتبه له، سيتكلم مرة أخرى ولن يكفّ حتى نفسك الأخير. يكلمنا في المنزل، وفي الشارع، وعلى المائــدة، وفي السوق، وفي الطريق، بل حتى في أحلامنا الخاصة كثيراً ما يضع أمامنـــا مشاهد وصور ذنوبنا.

أترى حكمة اللّه، فهو لم يجعل توبيخ الضمير يعمل بشكل متواصــل – إذ نحن لا نستطيع أن نتحمل وطأة لوم مستمر - ولم يجعله خافتاً جداً للدرجة التي يتوقف فيها بعد أول أو ثاني نصيحة. إن كان سينخسنا كل يوم وكل ساعة قــد يقضي علينا بالإحباط، وإن كفَّ عن توبيخنا بعد تذكيرنا مرة أو مــرتين لــن نحصل على منفعة كبيرة. لذلك جعل اللّه هذا التوبيخ متواتراً وليس مســتمراً، توبيخ متواتر حتى لا نسقط في الإهمال ونبقى يقظين ومنتبهين إلى النهاية، لكن ليس بشكل مستمر أو في تعاقب قريب حتى لا نسقط بل نســترد أنفاســنا فــي فترات الراحة والعزاء. لأنه كما أن عدم تحمل أي ألم نتيجة لخطايانـــا يكــون مهلكاً لنا وقد يولِّد فينا درجة كبيرة من اللامبالاة، كذلك أيضاً تحمله بشكل دائم ومستمر يكون مؤذياً.

في أغلب الأحيان يكون تأثير الإحباط المفرط قوي بما فيه الكفايـــة حتـــى يخرجنا عن صوابنا الطبيعي، ويقهر أرواحنا ويجعلنا عديمي الفائدة لأي غرض صالح. لذلك جعل اللّه تأنيب الضمير يهاجمنا على مراحل، نظراً لأنه حاد جداً وينخس الخاطئ بشكل شديد أكثر من أيّ مهماز. ليس فقط عندما نخطئ نحــن أنفسنا، بل حتى عندما يرتكب الآخرين تعديات مثل تعدياتنا، يثار الضمير بقوة ويوبخنا بشدة، فالزاني أو الفاسق أو اللص ليس فقط عندما يقع عليه الاتهام بل حتى عندما يسمع أن آخرين اتهموا بنفس الجرائم، يتخيل نفسه يُجلد، إذ يتــذكر ذنوبه الخاصة عند تقريع الآخرين. واحد يستدعى للعقاب والذي لــم يُســتدعى يُضرَب إن كان قد تجاسر وفعل نفس الجرائم مثله.

هكذا أيضاً بالنسبة للأعمال الصالحة، فعندما يَقبل آخرون مديحاً وأكاليل، يفرح ويبتهج أولئك الذين فعلوا نفس الأعمال المستقيمة، مفكرين أن هؤلاء لم يمدحوا بأي حال أكثر من أنفسهم. من يكون أكثر بؤساً من الشخص المذنب الذي يَنْسَلّ بعيداً للاختفاء عندما يقع الاتهام على أشخاص آخرين؟ ومن الناحية الأخرى، من يكون أكثر سعادة من الإنسان الفاضل الذي عندما يرى الآخرين يُمدَّحون يفرح هو نفسه ويبتهج، متذكراً أعماله الصالحة من ابتهاج الآخرين؟ هذه هي أعمال حكمة اللَّه، هذه هي علامات تدبيره الإلهي العظيم. إذ أن تأنيب الضمير هو نوع من المرساة المقدسة، فهو لا يسمح لنا بأن نغرق في أعماق الخطيئة في النهاية. ليس فقط في الوقت الفعلي لذنوبنا بل حتى بعد مرور فترة طويلة من الزمن، غالباً ما يجد طريقة ليذكرنا بخطيئة قديمة.

اللَّه يحوّل الشر إلى خير:

سأقدم لكم دليلاً واضحاً على ذلك من الكتاب المقدس، إخوة يوسف باعوه مرّة، مع أنهم لم يستطيعوا أن ينتقدوه في أي شيء، باستثناء رؤيته لأحلام تتنبأ بالمجد الذي سيحدث له، فهو قال لهم: رأيت "وإذا حُزمَتي قامت وانتصبت، فاحتاطت حُزَمُكم وسَجَدت لحُزمَتي" (تك ٣٧: ٧). في الواقع كان يجب عليهم أن يحرسوه بسبب ذلك، إذ أنه كان سيصبح ملكاً على عائلتهم بأكملها، والمتألق من بين جنسهم كله، لكن هكذا هو الحسد: يحارب ضد مصلحته الذاتية، فالشخص الحسود يُفضّل أن يتحمل مشاكل عديدة عوضاً عن رؤية جاره في سمعة حسنة، حتى إذا كانت سمعة جاره الحسنة ستفيده هو أيضاً. من يكون أكثر بؤساً من الإنسان الحسود؟ هكذا كانت مشاعر أخوة يوسف، عندما رأوه قادماً من بعيد، مُحضراً لهم طعاماً، قالوا لبعضهم البعض: "هَلُمَّ نقتله ... فنرى ماذا تكون أحلامه " (تك٣٧: ٢٠)، إن كنتم لم تحترموه كأخ ولا اعترفتم بعلاقتكم به، فعلى الأقل كان يجب عليكم أن تحترموا المائدة نفسها والخدمة المقدمة لكم إذ أنه جاء لإحضار طعامكم. أترى كيف تنبأوا بلا قصد قائلين: "هَلُمَّ نقتله .. فنرى ماذا تكون أحلامه"، لأنهم لو كانوا لم يخططوا ضده، ولا حاكوا خداعهم ونسجوا غرضهم الوقح، ما كانوا سيعرفون قوة تلك الأحلام، لأنه إن كان قد أعتلي

عرش مصر بدون تحمل أي معاناة ما كان هذا سيكون ملفتاً للنظر كما هو الحال في وصوله لنفس السمو من خلال العديد من العراقيل والعقبات. إن كانوا لم يخططوا ضده ما كان سيباع إلى مصر، وإن كانوا لم يبيعوه إلى مصر ما كانت زوجة سيده وقعت في هواه، وإن كانت زوجه سيده لم تقع في هواه ما كان قد طرح في السجن ولا فسر الأحلام ولا حَصُلَ على السلطة الملكية، وإن كان لم يَحصُل على السلطة الملكية ما كان سيحضر أخوته لشراء الحبوب ويسجدون له. لذا لأنهم حاولوا قتله، لهذا السبب عينه عرفوا أحلامه. ماذا إذاً؟ هل صاروا أداة لكل الأشياء الخيرة الآتية عليه ولهذا السمو الذي أخذه؟ بالطبع لا، هم من جهتهم خططوا لتسليمه للموت والضيق والعبودية وإلى أسوأ المصائر رداءةً، **لكن اللّه الحاذق في تدبير الصلاح استخدم شر المتآمرين لأجل صالح ذلك الذي تآمروا على بيعه - لئلا يظن أحد أن هذه الأشياء حدثت صدفة أو نتيجة لانقلاب الظروف - فاللّه جلب الأحداث التي حاولوا منعها بواسطة الرجال ذاتهم الذين عارضوها وأعاقوها، مستعملاً أعداء يوسف كخدم لصالحه. من هذا نتعلم أن ما خططه اللّه لا يمكن أن يتبدَّد، ولا أحد يستطيع أن يردَّ يده الممدودة**[٣٣]**، لذلك عندما يخطط الناس ضدك لا تنهار ولا تنزعج، بل تذكر أن المؤامرة سوف تؤدي إلى الخير في النهاية، إن تحملت بنبل كل ما يحدث إليك.**

هكذا نرى حتى في هذا العالم أن الحسد أنتج مملكة، والغيرة تسببت في تاج وقدمت عرشاً، الرجال ذاتهم الذين خططوا ضد يوسف دفعوه دفعاً نحو هذا المنصب الرفيع. حَكَمَ الضحيّة كملك بينما خَدَمَ المتآمرون كالعبيد. الأول قَبِل التبجيل أما هم فقدموا له الإكرام. **لذلك عندما تقع عليك مشاكل متلاحقة على فترات متقاربة، يجب عليك أن لا تضطرب، يجب عليك أن لا تنزعج، لكن أنتظر للنهاية فالخاتمة بلا شك ستكون جديرة بكرم اللّه العظيم، فقط إن تحملت بشكر ما يحدث لك في هذه الأثناء.** يوسف أيضاً بالرغم من أنه جاز في خطر كبير بعد تلك الأحلام، إذ باعه أخوته وتهجمت عليه امرأة سيده

---

(٣٣) " فإن رب الجنود قد قضى، فمن يُبطل؟ ويده هي الممدودة؟ فمن يردُها " (إش ١٤: ٢٧).

وأُلقي في السجن، إلا أنه لم يقل في نفسه: "ماذا يكون هذا؟ هذه الأحلام كانت خداعاً، فقد نُفيت من بلادي، وحُرمت من الحرية، ومن أجل اللَّه لم أذعن لامرأة سيدي عندما ألحت علي للزنا، ونتيجة للفضيلة وضبط النفس تمت معاقبتي، وبالرغم من كل هذا لم يحميني اللَّه بل سمح بأن أُسلَّم إلى سلاسل ثقيلة وضيق مستمر، فبعد الحفرة جاءت العبودية، وبعد العبودية جاءت مكيدة، وبعد المكيدة جاء اتهام كاذب، وبعد الاتهام جاء السجن". إلا أن يوسف لم يربكه أي أمر من هذه الأمور، لكنه ثابر في شجاعة ورجاء، عالماً أن كلام اللَّه لن يسقط أبداً.

كان من الممكن أن يتمم اللَّه كلمته في نفس اليوم، لكنه سمح بمرور وقت طويل وبحدوث عوائق كثيرة من أجل إظهار قدرته وإعلان إيمان خدامه، وبهذه الطريقة يمكننا أن نرى قدرة اللَّه الذي يحقق إعلاناته عندما يكون الناس قد فقدوا الأمل فيها، ويمكننا أن نرى صبر وإيمان خدامه الذين لا يفقدون رجاءهم المبارك بسبب أي شيء يحدث لهم في الوقت الحاضر. أخوة يوسف تقهقروا إذ ساقهم الجوع كجندي منكسين الرأس وجعلهم يقفون أمام يوسف. أرادوا شراء الحبوب، أما هو فقال لهم: "جواسيس أنتم"، قالوا فيما بينهم: "ما هذا؟ جئنا لنشتري طعاماً وها نحن نخاطر بحياتنا". هذا عدل، إذ أنه هو أيضاً أحضر لكم طعاماً وخاطر بحياته، لكن يوسف تحمل ذلك بالفعل أما أنتم فتتظاهرون فقط بالتحمل. لم يكن عدوكم لكنه أنتحل دور العدو لكي يتحرى بدقة عن العائلة. إذ أنهم كانوا أشراراً وقساة قلب من نحوه، ولمَّا لم يرى بنيامين معهم قلق بشأن الطفل لئلا يكون قد عانى مثله، فأمر بأن يقيد واحد منهم ويمكث هناك أما البقية فتأخذ الحبوب وترحل، وهددهم بالموت إن لم يحضروا أخاهم. وعندما حدث ذلك وقال: "فليجلس أخ واحد منكم .. وأحضروا أخاكم الصغير إليَّ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا" (تك ٤٢ : ١٩ ـ ٢٠)، ماذا قالوا لبعضهم البعض؟ قالوا: "حقاً أننا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضِيقَةَ نَفْسه لمَّا استرحمنا ولم نسمع" (تك٤٢: ٢١)، أترى كيف أنهم تذكروا هذه الخطيئة بعد كل هذه المدة الطويلة. لأبيهم قالوا: وحشٌ رديءٌ أكَلَهُ، أما الآن ويوسف حاضر وسامع وبَّخوا أنفسهم على الخطيئة. ما هذا الأمر الغير متوقع على

الإطلاق؟! نرى هنا سجن بلا محاكمة، واعتراف بلا تهمه موجهة، ودليل إثبات بلا شهود، إذ أن الرجال ذاتهم الذي ارتكبوا الفعل امتحنوا أنفسهم وباحوا بما تمَّ في السر. من أقنعهم، من أجبرهم أن يُخَبِّروا بالأعمال التي فعلوها منذ فترة طويلة هكذا علانيةً؟ أليس واضحاً أن الضمير - ذلك القاضي الذي لا يمكن خداعه - كان يهزَّ عقولهم بشكل مستمر ويزعج أرواحهم؟ هم أنفسهم يدلون بأصواتهم، حاكمين على أنفسهم بدون تقديم أي عذر، بينما الرجل المقتول يجلس يحاكمهم في صمت. هم اعترفوا بهذه الأشياء لكن واحد منهم دافع عن نفسه قائلا: "ألم أكلمكم قائلاً: لا تأثموا بالولد، وأنتم لم تسمعوا؟ فهوذا دمُهُ يُطلَبُ" (تك ٤٢:٢٢). في الواقع يوسف لم يقل شيئاً عن القتل وسفك الدم، بل جلس ولم يسأل عن أي شيء من هذا القبيل بل استفسر عن الأخ الآخر، لكن ضميرهم أغتنم الفرصة ونهض وأمسك بعقولهم وجعلهم يَقِرُّون بأعمالهم الطائشة بدون أي إجبار. نحن أيضاً نختبر في كثير من الأحيان الشيء ذاته، إذ نتذكر خطايانا الماضية عندما نكون مجرَّبين بأحوال صعبة.

احكم على نفسك:

بمعرفتنا لكل هذا، يجب علينا عندما نرتكب بعض الشرور أن لا ننتظر المحن والصعوبات أو الأخطار والقيود (حتى نتوب)، بل لنهيج هذه المحكمة الداخلية كل ساعة وكل يوم، لندلي بأصواتنا ضد أنفسنا ونحاول بكل السبل أن نجعل مرافعتنا أمام اللَّه. ليتنا لا نتجادل حول حقيقة القيامة والدينونة، ولا نجعل الآخرين يتجادلون بل لنمنعهم بنصحنا. لأنه إذا كان الأمر كذلك وليست هناك عقوبة في الآخرة، ما كان اللَّه قد وضع فينا هذه المحكمة هنا. فهذا أيضاً دليل على محبته للبشر، إذ لكونه سيطلب منا فيما بعد حساباً على ذنوبنا، وضع فينا هذا القاضي النزيه (الضمير). وبواسطة حكم هذا القاضي (الضمير) علينا هنا بسبب خطايانا وتقويمنا للأفضل يمكن انقاذنا من الدينونة الآتية. هذا ما قاله بولس:"لأننا لو كُنَّا حكمنا على أنفسنا لَمَا حُكِم علينا، (بواسطة الرب)" (اكو ١١:٣١).

لذلك حتى لا نُعاقب في الآخرة، ليت كل واحد منا يــدخل إلــى ضــميره الخاص، ويكشف قصة حياته، ويفحص كل تعدياته بكل تدقيق، ويحكــم علــى نفسه التي ارتكبت كل هذه الأفعال، ويصحح مقاصده، ويحصر ويضيق علــى أفكاره. ليته يلتمس معاقبة على خطاياه بإدانــة الــذات، وبالتوبــة الكاملــة وبالدموع وبالاعتراف وبالصوم وفعل الصدقة، وضبط النفس والإحسان، حتى يمكننا بكل وسيلة أن نطرح عنا كل ذنوبنا في هذه الحياة ونرحل للحياة الآتية بثقة كاملة، لعلنا جميعنا نحقق ذلك، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المســيح الذي له مع أبيه والروح القدس المجد إلى أبد الآبدين. آمين.

العظة الخامسة

تأديب اللَّه وإنذاراته

" أم تستهينُ بغنى لُطفه
وإمهالِهِ وطُول أناتِهِ،
غير عالم أنَّ لُطف اللَّه
إنما يقتادُك إلى التوبة ؟
ولكنَّك من أجل قساوتك
وقلبك غير التائب،
تَذْخَرُ لنفسك غضباً في يوم الغضب
واستعلان دينونة اللَّه العادلة "

(رو ٢ : ٤ ـ ٥)

العظة الخامسة

تأديب اللَّه وإنذاراته

الزلزال إنذار من اللَّه:

هل رأيتم قوة اللَّه؟ هل رأيتم محبة اللَّه للبشرية؟ رأيتم قوته عندما زلزل العالم، ورأيتم محبته عندما جعل العالم المترنح ثابتاً مرة أخرى - أو بالأحرى رأيتم قوته ومحبته في كلاهما - فالزلزال أظهر قدرة اللَّه وتوقفه أظهر محبته، إذ أنه هزَّ الأرض ثم جعل الكون راسخاً مرة ثانية، وبعد أن كان يتأرجح وعلى وشك الانهيار جعله منتصباً. قد انتهى الزلزال لكن ليبقى الخوف، ذلك الترنح قد جرى مجراه وعبرِ لكن لا تترك التعقل يغادر معه. قد أمضينا ثلاثة أيام في الصلاة، ليتنا لا نخفِّف من حماسنا الروحي. جاء الزلزال بسبب تهاوننا، قد استرخينا فاستدعينا الزلزال، جدَّدنا حماسنا فأبعدنا غضب اللَّه. ليتنا لا نتهاون مرة أخرى لئلا نستدعي غضبه وعقوبته من جديد. إذ أن اللَّه لا يسَّر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا (حز٣٣:١١).

هل رأيتم فناء الطبيعة البشرية؟! عند حدوث الزلزال تأملت في نفسي وقلت: أين السرقة؟ أين الطمع؟ أين الاستبداد؟ أين التكبر؟ أين الهيمنة؟ أين الظلم؟ أين نهب الفقير؟ أين عجرفة الغنيّ؟ أين سيطرة الأقوياء؟ أين التهديد والإكراه؟ أين الخوف؟ مرت لحظة واحدة، وإذا كل شيء قد تمزَّق بسهولة أكثر من تمزُّق شبكة العنكبوت، كل شيء تحطم، وامتلأت المدينة بالصراخ وركض كل إنسان نحو الكنيسة.

تأمل معي لو كان اللَّه قد اختار تدمير كل شيء، ماذا كان سيكون حجم المعاناة؟! أقول هذا لكي يبقى ذلك الخوف الناتج من تلك الأحداث قاطع فيك، فنحافظ على عزيمة كل شخص قوية وثابتة. قد هزَّنا لكنه لم يحطمنا، لو كانت إرادته تحطيمنا ما كان قد هزَّنا، لكن بما أنه لم يرد تحطيمنا **جاء الزلزال مثل نذير، محذراً كل إنسان بغضب اللَّه، حتى يمكننا من خلال مخافة اللَّه أن نُحسِّن من حياتنا ونتجنب العقوبة الفعلية.**

قد فعل ذلك حتى للأمم الأجنبية: " بعد ثلاثة أيام وتنقلب نينوى" (يون ٣:٤ س)، لماذا لا تقلب المدينة مباشرة؟ أتنذر بتدميرها، لماذا لا تدمرها في الحال؟ لأنني لا أبتغي الهدم، ولهذا السبب أنذر، وحتى لا أفعل ما أقول أجعل كلمتي تمضي مسبقاً وتمنع أعمالي. لذلك تكلم النبي: "بعد ثلاثة أيام وتنقلب نينوى". أما اليوم فالجدران تصدر صوتاً - أقول هذا لكُلاً من الفقير والغنيّ ولا أتوقف عن ذلك - لنتأمل كم هو رهيب غضب اللّه وكيف أن كل شيء سهل وبسيط أمامه، ولنمتنع عن الشر، إذ أنه في وهلة زمنية قصيرة أرهق عقل وثبات كل واحد منا، وهزَّ أساسات قلوبنا.

لنتأمل في ذلك اليوم الرهيب - الذي عوضاً عن لحظة زمنية واحدة يكون دهور بلا نهاية - حيث أنهار نار، وغضب مُخيف، وقوات تسحبنا للمحاكمة، وكرسي حكم رهيب، ومحكمة غير فاسدة، وأعمال كل إنسان ماثلة أمام أعيننا، لا يوجد أحد للمساعدة، لا جار ولا محامي ولا قريب ولا أخ ولا أب ولا أم ولا صديق ولا أي شخص آخر. أخبرني، ماذا سنفعل آنذاك؟! أني أجلب لكم مخافة لكي أعِّد خلاصكم. قد كتبت درساً أمضى من الفولاذ[٣٤] حتى يمكن لكل واحد منكم عنده قرحة متعفنة أن يقطعها بواسطته.

ألم أسأل على الدوام - كما أسأل الآن ولا أكف عن السؤال - إلى متى تتعلقون بأمور هذا العالم؟ أخاطبكم جميعاً وبصورة خاصة أخاطب أولئك المرضى الذين لا ينتبهون لكلامي. العظة بالأحرى مفيدة لكل منكم: للشخص المريض لتجعله صحيحاً، وللشخص الصحيح لتحفظه من السقوط مريضاً. كم من الوقت يدوم المال؟ كم من الوقت يدوم الغنى؟ كم من الوقت تدوم البيوت الفاخرة؟ إلى متى نسعى سعياً مسعوراً وراء التمتع بالأمور المادية؟ عندما جاء الزلزال هل أعانت الثروة أي إنسان؟ قد تحطم عمل الغنيّ والفقير على حد سواء، وهلكت الأملاك سوياً مع المالك، وهلك البيت سوياً مع الباني، وصارت

---

[٣٤] "لأن كلمة اللّه حية وفعّالة وأمضى من كل سيف ذي حدّين، وخارقة إلى مَفرَق النفس والروح والمفاصل والمِخَاخ، ومُمَيِّزةٌ أفكار القلب ونيَّاته " (عب ٤:١٢).

المدينة قبراً مشتركاً للجميع، قبراً غير مشيَّداً بأيدي عمال بل مُجَّهزاً بواسطة الكارثة ذاتها، أين كانت الثروة آنذاك؟ أين كان الطمع؟ ألم ترى كيف كان كل شيء هشاً أكثر من شبكة العنكبوت؟

أنا طبيب وأُقدِّم الأدوية:

لعلك تسألني: " كيف تساعد بالوعظ وما الفائدة؟ نعم أساعد فالذي يزرع يزرع وبهذا أقوم بواجبي. خرج الزارع ليزرع، سقطت بعض البذور على الطريق، وبعض على الصخر، وبعض بين الأشواك، أما البعض الآخر فسقط على تربة جيدة (مت١٣:٣). ثلاثة حصص هلكت وحصة واحدة خَلُصَّت، إلا أن الزارع لم يتوقف عن الفلاحة، وحيث أن حصة واحدة نجت لم يكف عن العمل في التربة. هنا أيضاً، عندما بعثرت مثل هذه الكمية من البذور، لا شك أنها ستنتج لي بعض الثمار. إن لم يسمع الجميع، فسيسمع النصف، إن لم يكن النصف فالثلث، إن لم يكن الثلث فالعشر، إن لم يسمع العشر لكن هناك واحد فقط من الجمهور يسمع، لندعه يسمع.

أنه شيء ليس بضئيل أن يخلص خروف واحد فقط، لأن الراعي ترك التسعة والتسعين خروف وركض وراء الواحد الضال (مت١٨:١٢). أنا لا أحتقر أي إنسان، فحتى ولو كان هناك واحد فقط إلا أنه كائن بشري، مخلوق حي يهتم به اللَّه. حتى إذا كان عبداً لا أحتقره، أنا لا يهمني طبقته الاجتماعية بل قداسته، لا يهمني وضعه كسيد أو عبد بل تهمني روحه. حتى إذا كان واحد فقط إلا أنه كائن بشري بُسطت من أجله السماوات، ولأجله تظهر الشمس ويتغير وجه القمر، ولأجله يتدفق الهواء وتتفجر الينابيع ويمتد البحر، ولأجله أرسِل اللَّه الأنبياء وأعطي الناموس، ولماذا أذكر كل هذا؟ إذ من أجله صار ابن اللَّه الوحيد إنساناً. سيدي الرب ذُبحَ وسُفك دمه من أجل الإنسان. هل أحتقره أنا؟ أي عذر يكون لي؟ ألم تسمعوا أن السيد الرب تحدث مع المرأة السامرية بكلمات كثيرة (يو٤: ٧-٤٢)؟ ولم يحتقرها لأنها سامرية بل أهتم بها لأن لها روح، لم يهملها لأنها خاطئة بل أهتم بها لكونها ستخلُص، ولأنها أظهرت إيماناً، ولذلك انتفعت كثيراً من اهتمامه.

أما بالنسبة لي، لن أتوقف عن الكلام، حتى إن لم يكن هناك شخص واحد يسمع: أنا طبيب وأقدِّم الأدوية، أنا مُعَلِّم ومُكلَّف بإعطاء النصيحة. فهو مكتوب: "يا ابن آدم، قد جعلتك رقيباً لبيت إسرائيل." (حز٣:١٧). ماذا لو لم أنجح في جعل أي إنسان مستقيماً؟ مع ذلك أتلقى مكافأتي. بالإضافة إلى أن هذا الاحتمال بعيد الحدوث، فمستحيل في مثل هذا الحشد الكبير أن لا يتم تقويم أحد ما.

مثل هذه الحجج والأعذار تُقدَّم من قِبَل المستمعين المهملين، فقد يقول شخص ما: "أنا أسمع كل يوم ولكنني لا أعمل شيء". أسمع حتى إن كنت لا تعمل، فمن السمع قد يتغير العمل أيضاً، فحتى وإن لم تعمل إلا أنك ستخجل من ذنبك، وحتى وإن لم تعمل إلا أن موقفك سوف يتغير، وحتى وإن لم تعمل إلا أنك سوف تدين نفسك على عدم عملك. من أين أتى تبكيت الذات هذا؟ أليس هو ثمر لكلامي. عندما تقول: "وحسرتاه، سمعت ولم اعمل"، فهذه الحسرة هي مقدمة للتغيير نحو الأفضل. قد أخطأت: فهل نُحت على خطيئتك؟ إن فعلت ذلك تكون قد أذبتَّ خطيئتك. "أعترف أولاً بخطاياك لكي تتبرَّر" (إش ٤٣:٢٦ س). إن كنت مكتئب وحزين بسببها، قد يكون هذا الاكتئاب بداية للخلاص، ليس بسبب الكآبة ذاتها بل بسبب حنان السيد الرب. فحزن الخاطئ ليس بالتماس ضعيف، لأنه مكتوب: "رأيت أنه حَزنَّ واكتأب فشفيت ألمه"[٣٥]. **آه أيها الحنان الفائق الوصف، والصلاح غير المدرك!، "حَزنَّ ... فشفيته"، هل هذا بالشيء الكبير: كونه حزن؟ بالطبع لا، لكن اللَّه جعل منه فرصة لشفائه من ألمه.**

الخطيئة مرض والتأديب علاج:

ألم ترى كيف جلب اللَّه في وهلة زمنية قصيرة كل شيء معاً؟ لذلك راجع نفسك وفكر باستمرار في ليلة الزلزال. كان الجميع خائف من الزلزال أما أنا فكنت خائف من سبب الزلزال. هل تفهم ما أعنيه؟ كانوا خائفين لئلا تنهار المدينة فيموتوا، أما أنا فكنت خائفاً لئلا يكون السيد الرب غاضبُ منا. **الموت ليس بالشيء المُفجِّع لكن المُفجِّع حقاً هو أن تُغضِب السيد الرب. لذا لم أكن**

---

[٣٥] " رأيت طرقه وسأشفيه وأقوده وأرد التعزيات له ولنائحيه " (إش ٥٧:١٨).

خائفاً من الزلزال بل من سبب الزلزال، إذ أن سبب الزلزال هو غضب اللَّه، وسبب غضب اللَّه هو خطايانا. لا تخف مطلقاً من العقاب لكن خف من الخطيئة سبب العقاب. هل كانت المدينة تترنح؟ - ما في ذلك؟ - لكن لا تجعل ثباتك يترنح. في حالة الإصابات والأمراض، نحن لا نحزن على أولئك الذين يتم شفائهم بواسطة العلاج بل على أولئك الذين مازال عندهم أمراض عضال. الخطيئة تشبه المرض أو الجرح، أما العقوبة فتشبه الجراحة والعلاج.

هل تفهم ما أقوله؟ أنتبه فأريد أن أعلمك كلمة حكمة. لماذا نحزن على أولئك الذين يعاقبون بينما لا نحزن على أولئك الذين يخطئون؟ العقاب ليس بالشيء المُفجع كالخطيئة، لأن الخطيئة هي سبب العقاب. إذا رأيت شخص ما عنده قرحة عفنة والديدان والإفرازات تخرج من جسمه، وتراه مهملاً جرحه الملوث، وترى شخص آخر عنده نفس المرض إلا أنه ينتفع من أيدي الأطباء بالمعالجة بالكي والجراحة والأدوية المُرَّة، أخبرني، على من منهما ستحزن، على المريض الذي لا يعالج أم على المريض الذي يعالج؟ بالطريقة نفسها، تصور مذنبان واحد يعاقب والآخر لا يعاقب. لا تقل هذا محظوظاً لأنه غني، يجِّرد الأيتام من ممتلكاتهم ويظلم الأرامل. هو ظاهرياً لا يبدو مريضاً، فله سمعة جيدة بالرغم من سرقاته، ويتمتع بالكرامة والسلطة، ولا يعاني من أي من المشاكل التي تصيب البشر، لا حُمَّى ولا شلل ولا أي مرض آخر، وتحيط به جوقة من الأطفال، وشيخوخته مريحة، لكنك يجب أن تحزن عليه بالأكثر لأنه مريض حقاً ولا يأخذ أي معالجة. سأخبرك كيف. إذا رأيت إنساناً مصاباً بداء الاستسقاء، وجسمه متضخماً بسبب طحال مؤلم، ولا يسرع إلى الطبيب بل يشرب ماء بارد، ومواظباً على مائدة مُترَفة، ويسكر كل يوم، ومحاطاً بحرّاس، ومهيجاً مرضه بكل وسيلة، أخبرني، هل تدعوه محظوظاً أم تعيس الحظ؟ وإذا رأيت شخصاً آخر مصاباً بداء الاستسقاء لكنه يستفيد من عناية الأطباء، مُطهِّراً نفسه بالجوع، وبصعوبة كبيرة يجابه أدويته المُرَّة - التي تؤلمه لكن تجلب له صحةً من خلال الألم - ألا تدعو ذلك الشخص أكثر حظاً من الآخر؟ بالطبع هو كذلك، إذ أن واحد مريض ولا يعالج بينما الآخر مريض وينتفع من العلاج. لكنك قد تقول: العلاج مؤلم، حقاً هو كذلك، إلا أن غايته نافعة.

هكذا أيضاً حياتنا الحاضرة، لكنك يجب أن تُحول الكلمات من الأجساد إلى الأرواح، ومن الأمراض إلى الذنوب، ومن الطعم المُر للأدوية إلى العقاب والحكم الإلهي، **وكما أن الأدوية والجراحة والمعالجة بالكي هم للطبيب كذلك التأديب هو للّه. وكما تُستعمل النار كثيراً للمعالجة بالكي لمنع انتشار العدوى، وكما تزيل أداة صلبة اللحم المتعفن - مسببة ألماً لكن مقدمة نفعاً - كذلك الجوع والمرض والتجارب الظاهرة الأخرى تستخدم على الروح بدلاً من النار والأداة الصلبة، لمنع انتشار المرض ولكي تجعل الروح أفضل.**

لنفترض أن هناك زانيان – تخيل الصورة التي تصفها كلماتي – واحد فقير والآخر غني، أيٌّ واحد منهما هناك أمل في خلاصه أكثر من الآخر؟ من الواضح أنه الرجل الفقير. لذا لا تقل: "هذا يرتكب زنى ومع ذلك غني، لذلك أدعوه محظوظاً"، بالأحرى أدعو من يزنى وهو في حالة الفقر والجوع أكثر حظاً، إذ لديه مُعلماً فعالاً للحكمة أي تجربة فقره. عندما ترى شخص شرير يحيا في يسر، أبكي عليه لأن هناك شرّان: المرض ذاته وعدم قابلية شفاءه، وعندما ترى شخص شرير في محنة صعبة، واسيه ليس فقط بسبب كونه يتحسن، بل أيضاً لكونه يُكَفِّر عن العديد من ذنوبه في هذه الحياة.

انتبهوا بكل عناية لكلماتي. كثير من الناس يكَفِّرون عن ذنوبهم هنا وفي الآخرة أيضاً يقع عليهم الحكم، والبعض هنا فقط، والبعض الآخر في الآخرة فقط. تمسكوا بتعليمي. إن فحصتم كلماتي بعناية، فكل تشويش سوف يطرد من أفكاركم.

لينصت إلى كلامي الغنيّ والفقير على حد سواء، فالتعليم سيكون نافعاً لكليهما. كدليل على أن كثير من الناس يحاكمون هنا وهناك أيضاً، لنصغي للسيد المسيح عندما يقول: "وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مُستحق وأقيموا هناك حتى تخرجوا وحين تدخلون البيت سلموا عليه، فإن كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه ولكن إن لم يكن مُستحقاً فليرجع سلامكم إليكم. ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة" (مت١٠: ١١-١٥).

واضح من هذه الكلمات أن شعبي سدوم وعمورة كلاهما قد حُكم عليهما في هذا العالم، وسوف تتم معاقبتهم أيضاً في العالم الآتي. عندما قال أن حالة سدوم ستكون أكثر احتمالاً من هؤلاء الناس، أظهر أن شعب سدوم سوف يعاقب لكن بأخف وطأةً منهم.

لكن هناك أيضاً بعض الناس يعاقبون في هذه الحياة فقط كالرجل الفاسق الذي ذكره ق. بولس الطوباوي عندما كتب لأهل كورنثوس: "يُسمع مطلقاً أن بينكم زنى وزنى هكذا لا يسمى بين الأمم حتى أن تكون للإنسان امرأة أبيه. أفأنتم مُنتفخون وبالحري لم تنوحوا حتى يُرفع من وسطكم الذي فعل هذا الفعل. فأني أنا كأني غائب بالجسد ولكن حاضر بالروح قد حكمت كأني حاضر في الذي فعل هذا هكذا. باسم ربنا يسوع المسيح إذ أنتم وروحي مُجتمعون مع قوة ربنا يسوع أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع " (١ كو ٥:١). أترى كيف أن هذا الرجل يعاقب هنا ولا يعاقب في الآخرة؟ لا يعاقب في الآخرة لأن جسده قد تمت معاقبته في هذا العالم.

الكنيسة جسد واحد:

وأخيراً أريد أن أعرض عليك الرجل الذي عاش حياة مرفهة هنا لكن عوقب في العالم الآخر. "كان إنسان غني .." (لو١٦). إن كنت تعرف هذه القصة مقدماً أنتظر لتسمع التفسير. هذه المعرفة تحسب لك كما تحسب لي أيضاً، إذ انك عندما سمعت المقدمة بدأت بالفعل تحصد الحصاد، فإصغائكم المستمر جعلكم مُعلمين، لكن بما أنه يوجد بعض الضيوف الذين جاءوا معكم، لا تسرعوا إلى خارج إنما انتظروا **الأعرج، فالكنيسة جسد: له عين وله رأس. إن نُخز كعب القدم بشوكة تنحني العين، إذ أنها أيضاً عضو في الجسد، ولن تقول: "بسبب كوني مستقرة فوق، أحتقر العضو الأدنى"، لكنها تنحني وتترك ارتفاعها. أي شيء أكثر وضاعة من الكعب، وأي شيء أكثر نبلاً من العين؟ لكن العطف يُصحح الاختلاف، والمحبة تجعل الجميع متساويين. هكذا يجب أن تفعل أنت أيضاً. إن كنت خفيف الحركة، إن كنت مستعداً استعداداً حسناً للاستماع، لكن عندك أخ لا يتابع ما قيل، أجعل عينك تهبط للكعب، أجعلها**

تتعاطف مع العضو الأعرج حتى يكون مهيئاً لكلامي بلا حرمان. لا تستخدم ذكاءك في ضرر غيرك، بل كن شاكراً للَّه على رشاقتك. هل أنت غني (بكلمة اللَّه)؟ أنني أبتهج وأسر بذلك، أما هو فلا يزال فقيراً، لا تجعله يمكث في الفقر بسبب غناك. عنده شوكة – تشويشاً في عقله – أنزل إليه وانزع الشوكة.

الغنى الخارجي والغنى الداخلي:

كان إنسان غني – غني بالاسم فقط وليس في الحقيقة – يلبس ملابس أرجوانية، يهيئ أمامه مائدة غالية الثمن، يزين كؤوس الخمر بأكاليل الزهور، يقيم حفلات سكر كل يوم، وكان هناك رجلاً آخر فقير أسمه لعازر. أين أسم الرجل الغنيّ؟ ليس في أي مكان، هو بلا أسم. عنده مقدار كبير من الثروة لكن اسمه غير موجود. أي نوع من الثراء هذا؟ شجرة تحمل أوراقاً لكن مُجردة من الثمر. شجرة بلوط تمتد عالياً مُقدمة جَوْز كغذاء للوحوش. إنسان بلا ثمر لأخيه الإنسان. حيث توجد ثروة وسرقة ترى ذئباً لا إنسان، حيث توجد ثروة ووحشية أرى أسداً لا إنسان، قد فقد نبله كإنسان بسبب دناءة الشر.

كان إنسان غني يلبس ملابس أرجوانية كل يوم، أما روحه فكان يحجبها بأنسجة العنكبوت، كان متعطراً بالعطور لكن نتناً في الباطن، مهيئاً مائدة غالية الثمن، مطعماً المتملقين والطفيليين، مسمناً العبد – أي جسده – لكن جاعلاً السيدَّة – أي الروح – تفنى بسبب الجوع. كان منزله مزيناً بأكاليل الزهور أما أساسه فكان مُغبراً بالخطيئة. روحه طُمرَّت في الخمر. هكذا كان هذا الرجل الغنيّ، بمائدته الغالية وكؤوس الخمر المزينة بأكاليل الزهور، وصحبته من الطفيليين والمتملقين - ذلك المسرح الشرير الذي للشيطان - الذين يهيمنون على الكثير من الأغنياء كالذئاب، أولئك الذين يشترون دمار الغنيّ بواسطة ملء بطونهم الخاصة، وينهبون ثروته بواسطة المدح والتملق المفرط. لا يخطئ المرء بدعوة هؤلاء الناس ذئاب، الذين يحيطون بالرجل الغنيّ كما بخروف، يرفعونه وينفخونه بالمديح ولا يسمحوا له برؤية جرحه، فيعمون فهمه ويزيدون من تلوث جرحه. وعندما يباغته تحول في الظروف يهرب منه أصدقاؤه، ونحن الذين انتقدناه نصير متعاطفين معه أما وجوه هؤلاء فتظل مختفية. هذا كثيراً ما يحدث

حتى في الوقت الحاضر. هكذا كان ذلك الرجل الغنيّ، مُطعماً الطفيليين والمتملقين، جاعلاً من بيته مسرح، مُضعفاً نفوس الجميع بالخمر، ومُقضّياً وقته في ازدهار عظيم.

كان هناك رجل آخر أسمه لعازر جالساً على باب الرجل الغنيّ يتأوه بالقروح ويشتهي فتات الخبز. كان ظمآناً وهو على مقربة من الينبوع وجوعاناً وهو في وسط الرخاء. وأين كان مطروحاً؟ لا في الطريق، ولا في الشارع ولا في زقاق، ولا في وسط السوق لكن على باب الرجل الغنيّ حيثما كان لابد أن يدخل ويخرج، لذا لا يستطيع الغنيّ أن يقول: أنا لم أره، عبرت ولم تشاهده عيناي. هو مطروح على مدخل بيتك - كلؤلؤة في الوحل - وأنت لا تراه؟! الطبيب (لعازر) عند بابك وأنت لا تقبل العلاج؟ الربان (لعازر) في الميناء وأنت تعاني من تحطم سفينتك؟ أتطعم الطفيليين ولا تطعم الفقراء؟

هذا حدث في الماضي لكنه يحدث الآن أيضاً. لهذا السبب كتبت هذه القصة حتى يتعلم من الأحداث جميع الأجيال، ولا يعانوا من نفس النكبة التي حلّت بهذا الغنيّ. **الرجل الفقير مطروح على الباب - فقير ظاهرياً لكن غني داخلياً - يرقد مجروحاً في الجسد، كصندوق نفائس فوق أشواك لكن من الداخل لآلئ**[٣٦]. **أي ضرر أصابه من ضعف جسده مادامت روحه متمتعة بالصحة؟ ليسمعني الفقراء ولا يكونوا مختنقين بالإحباط، وليسمعني الأغنياء وليتحولوا عن شرورهم. لهذا السبب وُضِعَ أمامنا كلتا الصورتان، صورة الغِنَى وصورة الفقر، صورة القسوة وصورة الاحتمال، صورة الجشع وصورة الصبر، حتى إذا رأيت رجلاً فقيراً مجروحاً ومحتقراً لا تعتبره تعيس الحظ، وإذا رأيت رجلاً غنياً مُزيناً لا تعتبره محظوظاً**، وعُد سريعاً إلى المثل، إن أربكتك الأفكار المحيرة أسرع إلى الميناء وخذ تعزية من التفسير، وفكر كيف كان لعازر مُحتقراً وكيف كان الرجل الغنيّ مُتنعماً، ولا تجعل أي من هذه الأمور التي تحدث في الحياة تحيرّك. إن كان فهمك صحيحاً لن تُغرقَك الأمواج. إن ميزت طبيعة الأشياء بفطنة لن تغرق السفينة.

---

(٣٦) " ولكن لنا هذا الكنز في أوان خزفية ليكون فضل القوة لله لا منا " (٢ كو ٤: ٧).

لماذا تقول: أنا في ضيق فهذا أو ذاك شرير ومع ذلك غني! ماذا في ذلك؟ لا تُقيِّم لي الشخص بحسب مظهره بل بحسب باطنه. عندما ترى شجرة هل تبحث فيها عن الأوراق أم عن الثمر؟ هكذا أيضاً بالنسبة للإنسان، إن رأيت شخصاً ما لا تُقيِّم خارجه بل داخله. أبحث عن الثمر لا الأوراق. ربما يعتقد الناس أنها شجرة زيتون مزروعة لكنها في الواقع شجرة زيتون برية. ربما يعتقد الناس أنه إنسان لكنه في الواقع ذئب. يجب أن لا تفحص مجرد نوعه بل طباعه، صفاته لا مظهره، وليس صفاته فقط بل تتحرى عن طريقة حياته بأكملها. إذا كان يحب الفقراء فهو إنسان أما إذا كان منغمساً برمَّته في التجارة فهو شجرة بلوط. إذا كان له طباع وحشية فهو أسد، إذا كان جشع فهو ذئب، إذا كان مخادع فهو أفعى سامة. لعلك تقول: " أنا أبحث عن إنسان، لماذا تريني وحشاً بدلاً منه؟"، لكي تعلم ما هي صفات الإنسان الحقيقية ولا يكن عقلك مشوشاً.

لعازر كان مطروحاً على البوابة مجروحاً، يهزل من الجوع. جاءت الكلاب ولحست جروحه. الكلاب أظهرت محبة للبشر أكثر من الإنسان عندما لحست جروحه ونظفت وأزالت التلوث. كان يجلس هناك ممدداً كعملة ذهبية - بل أكثر قيمة - بجانب الطريق. لم يقل ما يقوله أغلب الفقراء: هل هذه هي العناية الإلهية؟ ألا يشرف اللَّه على الشئون الإنسانية؟ أنا الذي أحيا في استقامة فقير بينما ذلك الذي يعيش في شر غني؟ لم يفكر في أي من هذه الأفكار لكنه امتثل لمحبة اللَّه للبشر الغير مدركة. طهَّر روحه وجعلها نظيفة، لبس التحمّل وأظهر صبراً. كان جسده ممدداً على الأرض أما عقله فكان يركض للأمام إذ كان لإرادته أجنحة كاملة النمو. كان يسعى نحو الجائزة[٣٧]، تاركاً الأمور الرديئة، ومقدماً شهادة في الأعمال الصالحة. لم يقل: "الرجال الطفيليون يتمتعون بمأدبة وافرة أما أنا فلم أوجد مستحقاً حتى لفتات الخبز". ماذا فعل عوضاً عن ذلك؟ قدَّم الشكر ومجَّد اللَّه.

جاء وقت موتهما. **الغنيّ مات ودفن، أما لعازر فرحل، إذ أنني لن أقول أنه مات. موت الرجل الغنيّ كان موتاً ودفناً أما موت الرجل الفقير فكان رحلة،**

---

[٣٧] " ألستم تعلمون أن الذين يركضون في الميدان جميعهم يركضون ولكن واحداً يأخذ الجعالة. هكذا اركضوا لكي تنالوا " (١كو ٩: ٢٤).

تغيير نحو الأفضل، ركضاً من علامة السباق إلى الجائزة، ومن البحر إلى الميناء، ومن المعركة إلى النصر، ومن عرق المباراة إلى الإكليل.

رحل كلاهما لذلك المكان الذي فيه كل شيء حقيقي. أزيلت قواعد المنصة ونُزعت الأقنعة. في مسرح هذا العالم تُنصَّب منصة المسرح في منتصف النهار، ويدخل الكثير من الممثلين، يلعبون أدوار ويلبسون أقنعة على وجوههم ويعيدون رواية قصة قديمة ويحكون الأحداث. واحد يصبح فيلسوف مع أنه ليس بفيلسوف. آخر يصبح ملك مع أنه ليس بملك بل يتخذ هيئة ملك لأجل الرواية. وآخر يصبح طبيب بدون معرفة كيفية التعامل حتى مع قطعة من خشب، لكنه يلبس ملابس طبيب. وشخص يصبح عبد مع أنه حر، وآخر يصبح مُعلم مع أنه لا يعرف حتى حروف أسمه. يظهرون في شكل غير شكلهم ولا يظهرون على حقيقتهم. واحد يظهر كطبيب وآخر يظهر كفيلسوف بارتدائه قناع مكسو بالشعر، وآخر يظهر كجندي بحمله معدات جندي. الأقنعة والمظهر الخارجي تخدع لكنها لا تزيف الجوهر. طالما أن الجمهور باق في مقاعده الأقنعة فعالة، لكن عندما يدركه المساء وتنتهي المسرحية ويخرج كل شخص، يُستغنى عن الأقنعة، والذي كان ملك بداخل المسرح قد يتبين أنه نحَّاس في الخارج. إذ عندما نُزعت الأقنعة غادر الخداع معها وظهرت الحقيقة. ذلك الذي كان حراً بداخل المسرح قد يتبين أنه عبد في الخارج، إذ أن الخداع بالداخل أما الحقيقة فبالخارج. يدركهم الليل وينتهي العرض وتظهر الحقيقة.

هكذا أيضاً هذه الحياة ونهايتها. العالم الحاضر مسرح، وأحوال البشر أدوار: الثروة والفقر، الحاكم والمحكوم ... وهَلُمَّ جرا. عندما ينتهي هذا اليوم، وتأتي هذه الليلة الرهيبة - أو بالأحرى هذا النهار فهو ليل للخطاة لكن نهار للأبرار- وتنتهي المسرحية وتُزال الأقنعة ويحكم على كل شخص بحسب أعماله، لا بحسب غناه، ولا بحسب منصبه، ولا بحسب سلطته، ولا بحسب قوته، لكن بحسب أعماله، سواء كان حاكماً أو ملكاً، وسواء كان رجلاً أو امرأةً. عندما تُرفع الأقنعة ويطلب اللَّه حساباً عن حياتنا وعن أعمالنا الحسنة، لا عن ثقل شهرتنا، ولا عن وضاعة فقرنا، ولا عن طغيان نفوذنا - قدم أعمالك إذا

كنتَ عبداً لكن أكثر نبلاً من الحُر، وإذا كنتِ امرأةً لكن أكثر شجاعةً من الرجل - حينئذ ينكشف من هو الغنيّ حقاً ومن هو الفقير حقاً.

وكما يحدث بعد انتهاء المسرحية، عندما يرى أحد منا وهو يتطلع من النافذة العلوية الرجل الذي كان فيلسوفاً بداخل المسرح نحَّاساً في الخارج، فيقول: ألم يكن هذا الرجل فيلسوفاً بالداخل؟! في الخارج أراه مجرد نحَّاس، ولغيره أيضاً، ألم يكن هذا الرجل ملكاً بالداخل؟! في الخارج أراه شخصاً وضيعاً، ألم يكن هذا غنياً بالداخل؟! في الخارج أراه فقيراً، هكذا سيحدث أيضاً عندما تنتهي هذه الحياة.

لن أتكلم بتفصيل أكثر من اللازم حتى لا أربك المستمع بأشياء كثيرة، لكنني أريد أن أضع أمامكم أقنعة لدورين من المسرح. قد وسَّعت فهمكم بشرح الحياة الحاضرة حتى يمكن لكل واحد منكم أن يميز الحقيقة. كان هناك قناعان: شخص كان له قناع رجل غني والآخر قناع رجل فقير. لعازر كان له قناع الفقير أما الرجل الغنيّ فكان له قناع الغنيّ. المظاهر الخارجية هي مجرد أقنعة وليست صدق الحقيقة. كلاهما غادر إلى العالم الآخر، الرجل الغنيّ والرجل المسكين. الملائكة استقبلت لعازر ... بعد الكلاب ملائكة، وبعد بوابة الرجل الغنيّ حضن إبراهيم، وبعد الجوع رخاء لا حد له، وبعد الضيقات تعزية دائمة. أما الرجل الغنيّ فبعد الغِنى لاقاه الجوع، وبعد المائدة المُترَفة لاقته العقوبة والقصاص، وبعد الراحة لاقاه ألم لا يحتمل. أترى ما حدث: غادروا إلى العالم الآخر والمسرحية انتهت والأقنعة رُفِعت فظهرت الوجوه على حقيقتها من ذلك الوقت فصاعداً. كلاهما غادر إلى العالم الآخر. الرجل الغنيّ من اللهيب يرى لعازر يتمتع بالوفرة والنعيم في حضن إبراهيم، ويقول: "يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويُبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب"، ماذا قال له إبراهيم؟ "يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا والآن هو يتعزى وأنت تتعذب وفوق هذا كله بيننا وبينكم هُوَّة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو ١٦: ٢٤-٢٦). لننتبه فمناقشة هذه الكلمات مفيدة، مخيفة حقاً لكن مُطهرة، تجلب ألماً لكن تجعلنا مستقيمين. أستمع إلى ما

أقول. نظر الرجل الغنيّ من عذابه فرأى لعازر في وضع جديد. "كان على بابك كل يوم، كنت تدخل وتخرج مرتين أو ثلاثة بدون رؤيته والآن وأنت في اللهيب تراه من مسافة بعيدة؟ عندما كنت تعيش في غناك، وعندما كنت حـراً لتـرى بكامل إرادتك لم تختار أن تراه، فكيف صار عنـدك الآن مثـل هـذا البصـر الثاقب؟! ألم يكن على بابك؟ كيف تفاديت رؤيته حينئذ؟ عندما كان بقربـك لـم تراه، والآن وهو على مسافة بعيدة عبر تلك الهوّة تراه؟! ".

وماذا فعل الرجل الغنيّ؟ دعا إبراهيم أباً، "لماذا تدعو أباً ذلك الرجل الذي لم تحاكيه في حسن ضيافته؟ يدعو إبراهيم أباً وإبراهيم يدعوه ابناً، هذه مجـرد تسمية علاقة لكنها لا تنفع قط، فالمثل يقدم هذه الألقاب لكي يعلمك أن العائلـة لا تنفع. الشرف الحقيقي هو ليس في منزلة عائلتك الرفيعة بـل فـي فضـائل شخصيتك. لا تقل لي: "أبي قنصل" فما الذي يعنيه هذا لي؟ لا أذكر هذا فقط بل حتى لو كان بولس الرسول أباك، أو كان لك أخوة شـهداء لكنـك لا تحـاكي فضائلهم، فالعلاقة لا تنفعك بل على العكس تضرك وتحكـم عليـك. أو يقـول شخص ما: " أمي تقدم صدقات كثيرة"، ما علاقة هذا بك وبسلوكك اللا إنساني؟ محبة والدتك للناس تزيد من التهم الموجهة إليك على شرك. ماذا قـال يوحنـا المعمدان للشعب اليهودي؟ "أصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون فـي أنفسكم لنا إبراهيم أباً " (لو٣:٨) ألك شخص مجيد من بين أسلافك؟ إن حاكيتـه ربحت وإن لم تحاكيه يصير سلفك النبيل هو من يتهمك، لكونـك ثمـرة مُـرَّة منحدرة من سلالة صالحة. لا تدعو أي شخص محظوظاً لكون أحد من أقربائه باراً، هذا إن لم يحاكي الصفات البارة لهذا القريب.

هل لك امرأة رديئة، والدتك مثلاً؟ هذا أيضاً ليس له علاقة بك، فكمـا أن فضائل أم صالحة لا تنفعك ما لم تحاكيها، كذلك أيضاً شرور أم رديئة لا تضرك إن اتخذت طريقة حياة مختلفة. وكما تستحق ملامة أكثر عند وجود مثال صالح في عائلتك ولا تحاكي فضائله، هكذا أيضاً يستحق مديحاً أكثر ذلـك الشـخص الذي على الرغم من وجود أم سيئة لا يحاكي شرها، وبـالرغم مـن الأصـل المُر يثمر أثماراً صالحة، فالمطلوب منك ليس علو مقام نسـبك بـل فضـائل شخصيتك.

نشأة العبودية:

من جهتي، يمكنني عند معرفة طباع الشخص أن أدعو عبداً ما شخصاً نبيلاً وأن أدعو سيداً ما شخصاً مقيداً بالسلاسل، فالشخص ذو المقام الرفيع إن كان له روح وضيعة هو بالنسبة لي ينتمي إلى الطبقة الأدنى، فمن هو العبد إذاً إن لم يكن هو الشخص الذي يفعل الخطيئة؟ أشكال العبودية الأخرى تتعلق بالظروف الخارجية، أما هذه العبودية فتختص بالطباع الداخلية. في الحقيقة جاءت العبودية أصلاً من هذا المصدر (أي من الخطيئة). في السابق لم يكن هناك عبيد. عندما كوَّن اللَّه الإنسان لم يخلقه عبد بل حر. خلق آدم وحواء وكلاهما كان حراً. إذاً كيف بدأت العبودية؟ بدأت عندما انحرف الجنس البشري وجرفه الفسق وتجاوز الحدود اللائقة للشهوة. لنسمع كيف حدث هذا.

كان هناك طوفان – كارثة عامة لكل العالم المأهول – انفجرت ينابيع الغمر العظيم (تك ٧) والهاوية تفجرت وكل شيء صار مياه. ذابت الأشياء المرئية وخُفضَّت لعناصرها الأولية. وصارت الأرض غير مرئية إذ أن الغمر غطى كل شيء بسبب غضب اللَّه. كل شيء كان بحر وأمواج. الجبال البالغة الارتفاع غطاها البحر. لم يكن هناك شيء سوى البحر والسماء أما جنس البشر فقد هلك. كان نوح شرارة جنسنا، شرارة عائمة في وسط البحر دون أن تُخمَّد، مُقدماً الثمار الأولى لجنسنا، مع زوجته وأولاده، وحمامة وغراب وكل البقية. جميعهم كان بالداخل، وحُمل الفلك على المياه في وسط الطوفان. لم يقاسي الفلك من أي ضياع نظراً لأن قائد دفته كان هو الرب سيد الكل. لم تكن ألواح الفلك الخشبية هي التي خلصتهم بل يد اللَّه القديرة. عندما اغتسلت الأرض بالطوفان وتم القضاء على أولئك الذين فعلوا شراً، وعندما هدأت العاصفة وظهرت قمم الجبال، رسا الفلك وأرسل نوح الحمامة.

هذه القصص أسرار وهذه الأحداث نماذج لأمور مستقبلية، فالفلك يرمز للكنيسة، ونوح يرمز للسيد المسيح، والحمامة ترمز للروح القدس، وغصن الزيتون يرمز لمحبة اللَّه للبشرية. أرسل نوح طائراً لطيفاً فخرج من الفلك: تلك الأشياء رموز وما ترمز إليه هو الحقيقة. أترى ثراء الحقيقة؟. فكما أنقذ الفلك وهو في وسط الطوفان أولئك الذين كانوا بالداخل، كذلك أيضاً تُخلِّص الكنيسة

جميع الأنفس الضالة. الفلك نجَّاهم فقط أما الكنيسة فتفعل ما هو أكثر من ذلـــك، أعني شيء مثل هذا: الفلك تلقى حيوانات غير عاقلة وأنقذهم كحيوانـــات غيـــر عاقلة، أما الكنيسة فتستقبل بشر غير عاقلين ولا تنقذهم فقط بل تغيرهم أيضـــاً، **الفلك تلقى غراب وأطلق غراب أما الكنيسة فتتلقى غـــراب وتطلقـــه حمامـــة، وتتلقى ذئب وتطلقه خروف. عندما يدخل شخص جشع وبخيل للكنيسة ويسمع تعاليم الكتاب المقدس يُغير من طباعه ويصير خروفاً بدلاً مـــن ذئـــب. الـــذئب يسرق ما يخص الآخرين أما الخروف فيعطي حتى صوفه الخاص.**

رسا الفلك وفُتِحت الأبواب، خرج نوح وخلص من الطوفان، ورأى الأرض وقد صارت مهجورة، رأى ضريح مُشكل من الطين، قبـــر جمـــاعي للإنســـان والحيوان، كل أجسام الخيول والبشر وكل أنواع الحيوانات الغير العاقلة مدفونة معاً في أكوام، رأى تلك المأساة، رأى الأرض تتأوه بمرارة، فـــأحبط إحباطـــاً كبيراً إذ أن كل شيء قد هلك، لم ينج شيء - لا إنسان ولا حيوان - خارج الفلك. رأى فقط السماوات. تغلب عليه الإحباط وأشتد عليه الألم. شرب خمراً واستسلم للنوم لكي يخفف من جرح إحباطه، اضطجع على سريره وأسلَم نفسه للنوم كما لطبيب، حتى يحصل عقله على نسيان ما قد حدث، كما يحـــدث عـــادة عنـــدما يشرب شيخ خمراً وينام. يجب علينا أن ندافع عن الرجل البار لأنه لم يرغب في السُكر والهوى بل استخدمه لشفاء جرحه. قال سليمان أيضاً: "أعطـــوا مســـكراً لهالك وخمراً لمُري النفس" (أم٣١:٦)، لهذا السبب كثير من الناس خصوصاً في الجنازات عندما يفقد أحد ما طفل أو زوجة، وتتغلب عليه العواطـــف ويطوقـــه الإحباط وتسيطر عليه اليقظة، يأخذه أصدقاؤه لبيتهم ويسقونه خمراً، يعطون ذاك الذي يندب خمراً للتخفيف من ألمه.

نفس الشيء حدث آنذاك مع نوح، إذ تغلب عليه الإحباط فأستعمل الخمـــر كدواء وبواسطة الخمر استسلم للنوم. مما يلي يمكنـــك أن تعلـــم كيـــف بـــدأت العبودية: فبعد قليل دخل عليه الابن الملعون - ابنه بالطبيعة لكن ليس ابنه فـــي حُسْن السلوك (فكما ذكرت المقام الرفيع ليس في سمو الأسلاف بل في ســـمات الشخصية) - ورأى عري أبيه (تك٩:٢٢). كان يجب عليه أن يكسي أبـــاه. كـــان يجب عليه أن يغطيه بسبب شيخوخته وبسبب حُزنه وضيقه، ولكونه أباه، لكنـــه

خرج وأعلن الأمر وأذاعه. أخوته الآخرين أخذوا رداءً وحملاه إلى الخلف ليمتنعوا عن رؤية ما أذاعه، ودخلوا وغطوا أباهم. عندما أستيقظ أباهم علم بكل شيء وقال: "ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته " (تك٩:٢٤). قصد شيئاً مثل هذا: "أنت ستكون عبداً لأنك أعلنت خزي أباك". أرأيت كيف جاءت العبودية من الخطيئة وكيف أدخلها الشر؟

العبد هو الإنسان الأسير لأهوائه:

هل أريكم حرية ناشئة من العبودية؟ كان هناك عبد هارب بلا نفع اسمه أنسيمس، هرب وذهب إلى ق. بولس، وحصل على المعمودية، وغسل ذنوبه، ومكث عند قدمي ق. بولس. كتب ق. بولس لسيد ذلك العبد قائلاً: " أنسيمس ... الذي قبلاً غير نافع لك ولكنه الآن نافع لك ولي ... فاقبله نظيري" (فليمون ١٠-١٧)، ماذا حدث؟ قد صار له ق. بولس أباً في سجنه. أترى علو مقامه؟ هل ترى السمات التي تجلب الحرية للمرء؟

عبد وحر، هذه مجرد ألقاب ليس إلا. ما هو العبد؟ مجرد نعت. كم من الأسياد يضطجعون سكارى على أسرّتهم، بينما يقف العبيد في رزانة؟ من منهم أدعوه عبداً، الشخص المتزن أم الشخص السكير؟ الشخص العبد لإنسان آخر أم الشخص الأسير لأهوائه؟ الأول عبوديته من الخارج أما الثاني فيرتدي عبوديته من الداخل. أقول هذا ولا أتوقف، حتى يمكنك تمييز حقيقة جوهر الأشياء، ولا تضل بنفس المخادعة كأغلبية الناس، بل تعرف من هو العبد حقاً، ومن هو الفقير حقاً، ومن هو الوضيع حقاً، ومن هو المحظوظ حقاً، وما هي الأهواء. إن تعلمت أن تُميز هذه الأشياء لن تكون في عرضة لأي تشويش.

أرسل لعازر:

ولكن لئلا يقود الاستطراد – الذي صار لمدة طويلة – العظة بعيداً، لنرجع للموضوع. هكذا نرى ذلك الرجل الغنيّ – بل فقير من الآن فصاعداً أو على الأصح كان فقيراً عندما كان غنياً - ما المنفعة لشخص يملك ممتلكات الآخرين ولا يملك ما له؟ ما المنفعة لشخص يربح أموالاً طائلة ولا يربح فضيلة؟ لماذا

تأخذ ممتلكات الآخرين بينما تفقد ما هو لك؟ قد يقول: "أملك أرض مثمرة"، ما المنفعة من ذلك إن لم يكن لك روح مثمرة؟ قد يقول: "عندي عبيد"، لكن ليس عندك فضيلة. أو "عندي ملابس"، لكنك لم تحصل على التقوى. عندك ما يخص الآخر لكن ليس عندك ما يخصك. إن أعطاك شخص ما بعض المال أمانة عندك كوديعة، لا أستطيع أن أدعوك غني، أليس كذلك؟ لأن ما عندك هو مال شخص آخر، مجرد وديعة. أودُ أن يكون وديعة فقط وليس كمية مضافة إلى عقوبتك.

عندما رأى الرجل الغنيّ لعازر قال: "يا أبي إبراهيم ارحمني" – هذه كلمات شخص فقير، شحاذ، متسول – " يا أبي إبراهيم ارحمني ". ماذا تريد؟ " أرسل لعازر". الرجل الذي عبرت عليه آلاف المرات والذي لم ترد رؤيته قبلاً، الآن تريد إرساله لك لأجل إنقاذك؟ " أرسل لعازر". أين هم حاملوا كأسك؟ أين سجادك الثمين؟ أين خاصتك الطفيليون؟ أين هم متملقوك؟ أين ذهب كبرياؤك؟ أين وقاحتك؟ أين ذهبك المدفون؟ أين ثيابك التي أكلتها العثة؟ أين الفضة التي كنت تقدرها بدرجة كبيرة؟ أين تفاخرك وتَرفك؟ **كل هذا مجرد أوراق شجر، وعندما جاء الشتاء ذبُل كل شيء. كل هذا كان مجرد حلم، وعندما جاء الصباح رحل الحلم. كل هذا كان مجرد خيال، وعندما جاء الحق أنقشع الخيال.**

لماذا لم يرى الغنيّ أي شخص بار آخر؟ لا نوح ولا يعقوب ولا لوط ولا إسحق بل إبراهيم؟ لماذا؟ لأن إبراهيم كان مضيافاً وأحضر المسافرين إلى خيمته. كرم الضيافة الذي لإبراهيم صار تهمة شديدة موجهة ضد قسوة الرجل الغنيّ.

عندما نسمع عبارة "أرسل لعازر"، لنخاف أيها الأحباء، لئلا نرى نحن أيضاً الفقراء ونعبر عنهم، وعوضاً عن لعازر يكون أمامنا الكثير في الحياة الأخرى لاتهامنا. "أرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويُبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب" (لو٢٢:٢٤). لأنكم " بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم" (مت٧:٢). فإن كنت قد فشلت في إعطاء حصة من فتات خبزك، فلن تتلقى حصة من قطرات الماء: " أرسل لعازر ليبل طرف إصبعه ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب".

استوفيت خيراتك:

وماذا قال له إبراهيم: "يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزَّى وأنت تتعذب" (لو ١٦: ٢٥). إبراهيم في إجابته هنا لم يقل: "تلقيت" (ἔλαβες)، بل قال: "استوفيت" (ἀπέλαβες)، إضافة حرفين في بداية الكلمة تُحدث اختلافا كبيراً. كما قلت لكم كثيراً أيها الأحباء، يجب أن نفسر حتى المقاطع الصوتية (في كلام الآيات) بتدقيق، لأنه مكتوب: "فتشوا الكتب" (يو٥: ٣٩)، فكثيراً ما يوقظ حرف واحد أو حتى نقطة واحدة فكرة[٣٨]. ولكي تعلم أن إضافة حرف واحد يمكن أن يعطي معنى، تذكر أن هذا البطريرك ذاته إبراهيم (Ἀβραάμ) كان يدعى في السابق أبرام (Ἀβράμ)، وقال له اللَّه: "فلا يدعى أسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم" (تك٥: ١٧)، أضاف اللَّه لأسمه حرف (α) وجعله أباً لأمم كثيرة. هكذا بإضافة حرف واحد أظهر عظمة مكانته. لذلك لا تعبروا على مثل هذه الأشياء ببساطة. إذ أن إبراهيم لم يقل: "أخذت خيراتك" بل قال "أستوفيت خيراتك". الذي يستوفي ما له يأخذ ما يستحقه كدين. انتبهوا لما أقوله: الأخذ شيء أما الاستيفاء فشيء آخر، الشخص عادة يأخذ ما لم يكن له قبلاً، أما الذي يستوفي فيأخذ ما كان له كدين من قبل. "اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا". الرجل الغنيّ تلقى خيراته المستحقة له، ولعازر تلقى البلايا المستحقة له. أقول كل هذا من أجل أولئك الذين يعاقبون هنا فقط وليس في الآخرة، ومن أجل أولئك الذين يعيشون حياة مرفهة هنا ويعاقبون في الآخرة.

أنتبه إلى تحقيقنا – أنا آت إلى المعنى – أتركني أَحْبُك الشبكة، ولا تصير مشوشاً بسبب المقدمة بل أنتظر النتيجة. أريد أن أجعلك نافذ البصيرة ولا أدربك فقط بشكل سطحي بل آتي بك إلى عمق الكتاب المقدس، عمق بلا عواصف، عمق أكثر أماناً من أي بحر هادئ، فبالقدر الذي تذهب فيه إلى العمق بالقدر الذي تجد فيه أماناً أعظم، ففي العمق لا يوجد اندفاع مياه مضطرب بل يوجد ترتيب منظم للأفكار.

---

[٣٨] " فأني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس " (مت ٥: ١٨).

" أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزّى وأنت تتعذب". قلت أن الذي يستوفي ما له يتلقى ما هو مستحق له كدين. فإن كان لعازر بار – وهو بالحقيقة كذلك – وظهر في حضن إبراهيم مع إكليله ومكافأته وتعزيته ونعيمه كجوائز احتماله وصبره، والآخر كان خاطئ، كريه جداً وقاسي، مُبدداً حياته في رفاهية وسُكر، مرتباً لنفسه مائدة مُترَفة، ومنغمساً في مثل هذا الفسق والعبث، فلماذا قال له إبراهيم: "استوفيت خيراتك"؟ هل كان لذلك الرجل الثري المُبذِّر القاسي بعض الديون مستحقة له؟ ما هو الشيء المستحق له؟ لماذا قال له إبراهيم "استوفيت" ولم يقل "تلقيت"؟ كان الجزاء والعقوبة والألم مستحقاً له، فلماذا قال إبراهيم "استوفيت خيراتك في حياتك" - أي تلقاها كأشياء مستحقة له – ولم يقل "تلقيت خيراتك"؟

وسع ذهنك فسوف أهبط إلى أعماق الأفكار. بين كل البشر، يوجد بعض الناس خطاة والبقية أبرار، **هناك أيضاً اختلاف فيما بين الأبرار، هناك شخص بار وهناك شخص آخر أكثر براً. يوجد شخص سامٍ، لكن يوجد شخص آخر أكثر سمواً، فكما توجد نجوم عديدة والشمس والقمر كذلك أيضاً يوجد تمايز بين الأبرار. "مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد"** (١كو١٥:٤١). **إذ يوجد شخص أكثر مجداً وآخر أقل مجداً.** وكما هو الحال فيما بين الأجرام السماوية كذلك يكون أيضاً فيما بين الأجسام الأرضية. وكما هو الحال فيما بين الأجساد، إذ يوجد ظبي، وآخر كلب، وآخر أسد أو وحش آخر، وآخر ثعبان أو شيء من ذلك النوع، هكذا أيضاً توجد اختلافات بين الخطاة. إذاً بعض الناس أبرار والبقية أشرار، لكن توجد هناك اختلافات كبيرة فيما بين الأبرار كما هو الحال فيما بين الأشرار.

لا يوجد إنسان بلا خطية:

إي إنسان بار – حتى وإن كان عشرة آلاف مرة باراً – لا يمكن أن يكون خال تماماً من كل شائبة أي محرراً من كل خطيئة حتى ولو بلغ إلى

أعلى قمة روحية إذ أنه بشر. "من يقول أنـي زكَّيت قلبـي، تطهـرت مـن خطيتي" (أم ٩:٢٠). لهذا السبب أوصانا الرب أن نقول في الصـلاة: "واغفـر لنا ذنوبنا" (مت٦:١١)، حتى بواسطة ممارسة الصلاة نتذكر ذنوبنا وأننا عرضة للعقاب.

حتى ق. بولس الرسول – ذلك الإناء المختار، هيكل اللّه، فم المسيح، قيثارة الروح، مُعلم المسكونة، الذي إجتاز الأرض والبحر، الذي نزع أشواك الخطيئة، الذي زرع بذور التقوى، الذي كان أكثر ثراءً من الملوك وأكثـر عظمـة مـن الأثرياء وأقوى من الجنود وأحكَم من الفلاسفة وأكثر بلاغة من الخطباء، ذلـك الذي لم يمتلك شيئاً وبالرغم من ذلك ربح كل شيء، الذي فك رُبُط الموت بظله، الذي طرد المرض بثيابه، الذي ربح انتصاراً على البحر، الذي أُختطـف إلـى السماء الثالثة، الذي دخل الفردوس، والذي كرز بالسيد المسيح إلهـاً – يقـول: "فإني لست أشعر بشيء في ذاتي لكنني لست بذلك مبرراً " (١ كو ٤:٤)، ذلـك الذي ربح مثل هذه الفضائل الكثيرة والعظيمة مازال يقول: "ولكن الذي يحكم في هو الرب" (١ كو ٤:٤).

إذاً فمن يفتخر بأن له قلب نقي؟ أو من يقـول بجـرأة إنـه تطهَّـر مـن خطيئته؟ فمستحيل لأي إنسان أن يكون بلا خطيئة. ماذا تقول؟ "هناك شـخص ما بار، يعطي صدقة، يحب المساكين" حسناً، لكن له بعض العيـوب، عصـبي المزاج أو معجب بنفسه أو شيء من هذا القبيل. هناك شخص يعطـي صـدقة لكنه في أحيان كثيرة يخفق في ضبط نفسه، وهناك آخر ضـابط لنفسـه لكنـه لا يعطي صدقة. شخص مميز بفضيلة ما وآخر مميز بفضيلة أخرى. أفتـرض أن هناك شخص بار وصالح وعنده كل الصفات الحسنة، إلا أنـه قـد يصـير متعجرفاً في أحوال كثيرة بسبب صلاحه، وعجرفته تفسد صلاحه. ألـم يكـن الفريسي صالح، ويصوم مرتين في الأسبوع؟ ماذا قال؟ "أني لست مثـل بـاقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة" (لو١٨:١١). **فكثيراً ما يصل الشخص بضـمير صافٍ إلى العجرفة، والضرر الذي لم تفعله بـه الخطيئـة يفعلـه الكبريـاء.** حقاً غير ممكن لإنسان أن يكون كاملاً في البرِّ أي متطهـراً تمامـاً مـن كـل خطيئة.

لا يوجد إنسان شرير بالطبيعة:

وفي المقابل غير ممكن لأي إنسان أن يكون شريراً جداً بحيث لا يكون فيه أي شيء صالح ولو ضئيل. فمثلاً، شخص يسيء للآخرين ويسرق ويحتال، إلا انه أحيانا يعطي صدقة، أحياناً يضبط نفسه، أحياناً يتفوّه بكلمة لطيفة، أحيانا يساعد ولو شخص واحد، أحياناً ينوح ويحزن. **هكذا لا يوجد أي بار بلا خطيئة ولا يوجد خاطئ مُعدَم تماماً من الصلاح.**

من يكون أكثر شراً من أخاب؟ فهو قتل وورث[٣٩]، وبالرغم من ذلك عندما حزن آخاب قال الرب لإيليا: "هل رأيت كيف أتضع آخاب أمامي" (١مل ٢١:٢٩). هل رأيت كيف وجد الرب بعض الصلاح الضئيل في وسط هذا الشر المفجع؟ من يكون أكثر رداءة من يهوذا الخائن الذي فتنه حب المال؟ بالرغم من ذلك إلا أنه فعل شيء جيد ولو ضئيل جداً بعد الخيانة، إذ قال: " قد أخطأت إذ سلَمت دماً بريئاً " (مت٢٧:٤). هذا ما قصدته: الإنسان ليس شرير بالطبيعة بحيث لا تجد الفضيلة مكاناً فيه. لا يمكن للخروف أن يصبح حيواناً وحشياً لأنه أليف بالطبيعة، ولا يمكن للذئب أن يصبح أليفاً لأنه وحشي بالطبيعة، فقوانين طبيعة الحيوان لا تتلاشى ولا تهتز بل تبقى ثابتة. هذا لا ينطبق في حالة الإنسان لأنه يصبح وحشياً عندما يرغب، ويصبح أليفاً عندما يرغب، لأنه غير مقيد بالطبيعة بل قد تم إكرامه بحرية الاختيار.

هناك مجازاة على كل عمل:

لا يوجد شخص صالح للدرجة التي لا يكون فيه عيب صغير، ولا يوجد شخص شرير للدرجة التي لا يكون فيه ميزة جيدة ولو صغيرة. وكما أن هناك عقاب لكل شيء رديء، كذلك أيضاً هناك مكافأة لكل شيء حسن. حتى ولو كان الشخص قاتل أو فاسق أو جشع، إذا فعل شيء صالح، تبقى له مكافأة على عمله الجيد، فعمله الجيد لا يذهب هباءً بسبب شره. وفي المقابل إذا فعل شخص ما أعمال صالحة لا تُعَد ولا تحصى لكنه فعل أيضاً شيء وضيع يبقى الجزاء على

---

[٣٩] " هكذا قال الرب هل قتلت وورثت أيضاً ... في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً " (١ مل ٢١:١٩).

عمله الدنيء. تذكر هذا وأحفظه ثابت وراسخ: لا يوجد شخص صالح بلا خطيئة ولا شخص شرير بدون صلاح. أني أكرر كلامي لكي أزرع الفكرة وأثبتها في أعماق قلوبكم. الشيطان يضع بعض الخلل في أرواحكم، راغباً في تضليل عقولكم، لذلك أُرسل كلامي إلى الأعماق. إن حفظتم كلامي بشكل مصون فحتى إن خرجتم خارجاً لن تفقدوه. ومثلما أضع ذهب في محفظة ثم أربطها وأختمها حتى أمنع اللص من أخذه في غيابي كذلك أفعل معكم أنتم أيضاً أيها الأحباء. بواسطة تعليمي المستمر أربط وأختم وأجعل سلوكك مُصَان حتى لا يُوهَن من التسيُّب، بل أحفظه بصورة أفضل، فيمكنني أن أبعد التشويش الذي من خارج بواسطة هذا الهدوء الذي في الداخل.

لذا، فكلامي المكرر ليس مجرد ثرثرة، لكنه صادر من اهتمام المُعلم ومحبته، خشية أن يُخمَد تأثير الكلام. قول هذه الأشياء ليس شاق عليَّ، لكنه يصون حياتكم. فأني أريد أن أُعَلّم لا أن أقدم عرضاً.

إذاً لا يوجد إنسان بار بلا خطيئة ولا إنسان شرير بلا شيء حسن. لنرى ما يحدث: الإنسان الخاطئ يأخذ جزاءه على أعماله الحسنة كحق له حتى ولو كان له عمل واحد صالح وصغير، والإنسان البار يأخذ الحكم العادل على خطيئته كمستحق عليه حتى ولو كان له عمل واحد شرير وصغير. فما الذي يحدث؟ ما الذي يفعله اللّه؟ وضع اللّه حد فاصل للخطيئة فيما بين الحياة الحاضرة والحياة الآتية. إذا كان الإنسان باراً لكنه فعل بعض الأفعال المشينة، وتراه مريضاً في هذه الحياة ومُسلَّماً إلى التأديب لا تنزعج بل تأمل الأمر وقل لذاتك: أن هذا الإنسان البار فعل بعض الشرور الصغيرة في زمن ما وهو يأخذ هنا ما يستحقه لذلك، حتى لا يعاقب في الحياة الأخرى. وفي المقابل إن رأيت إنسان شرير يسرق ويحتال ويعمل شرور لا تعد ولا تحصى، ووجدت حاله مزدهر، اعتبر أنه فعل بعض الصلاح في وقت ما وهو يأخذ الأشياء الجيدة هنا كحق له حتى لا يكافأ في الحياة الأخرى. إذاً فالشخص البار الذي يعاني من الصعوبات يأخذ ما يستحقه هنا حتى يطرح خطيئته بعيداً ويغادر نظيفاً للعالم الآخر. والشخص الخاطئ المُحمَّل بالشرور والمريض بآثام لا تعد ولا تحصى كالجشع والبخل، يتمتع بازدهار هنا حتى لا يبحث عن مكافأة في الحياة

الأخرى. لذلك بما أن لعازر كان له بعض الخطايا والرجل الغنيّ كان له بعض الأعمال الحسنة لهذا السبب قال له إبراهيم: لا تلتمس أي شيء هنا، إذ أنك قد استوفيت خيراتك في حياتك الأرضية، كما استوفى لعازر البلايا. إن لم يكن الأمر هكذا، فلماذا قال له إبراهيم: "أنك استوفيت خيراتك"؟ أي إن كنت قد فعلت شيء صالح فإنك قد أخذت في المقابل ثروة وصحة ورفاهية وقوة ونفوذ، ولا شيء مدان لك بعد، بل استوفيت خيراتك، وماذا عن لعازر؟ ألم يخطئ قط؟ بل استوفى لعازر أيضا البلايا المستحقة عليه. فعندما كنت تأخذ خيراتك كان لعازر أيضاً يأخذ بلاياه، لذلك هو الآن يتعزى أما أنت فتتعذب.

لذلك عندما ترى إنساناً باراً يعاقب في هذه الحياة اعتبره محظوظاً وقل: **إما أن هذا الإنسان البار عنده بعض الخطايا ويأخذ ما هو مستحق لذلك، ومن ثم يغادر نظيفاً للحياة الأخرى، وإما أن ذلك الإنسان يعاقب بصورة أكثر من استحقاق خطاياه، وبالتالي يُضاف هذا الفائض من الصلاح لمجده في يوم الحساب.** لأن هناك محاسبة ستأخذ مكاناً فيما بعد، وسيقول اللّه للإنسان البار: "قد أخذت مني هذا المقدار"، ربما كان قد ائتمنه على عشرة وزنات وجاء الوقت لمحاسبته عليهم. إن كان الشخص قد أثمر ستون وزنة يقول له اللّه: سأحسب عشرة وزنات على ذنوبك وخمسين وزنة نحو برك. **ولكي نتعلم أن الباقي من البرِّ محسوب لمجده، تذكر أن أيوب كان رجلاً باراً، صادقاً تقياً بلا لوم وممتنعاً عن كل أمر رديء، ومع ذلك تأدب جسده هنا حتى يمكنه أن ينشد مكافأة مجيدة في الحياة الأخرى**، ماذا قال له اللّه؟ "لا تناقض حكمي، هل تظن لو كنت قد تعاملت معك بأي طريقة أخرى غير هذه، كان يمكن إظهارك كصِدِّيق" (أي ٤٠:٨ س). لذلك لنظهر نفس الصبر الذي للأبرار ونتحمل تحملاً مماثلاً لهم، لكي نحوز على الأشياء المفرحة المُعَدَّة للقديسين الذين يحبون اللّه، ونبلغ إليها جميعاً بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة إلى دهر الدهور آمين.

العظة السادسة

ادخلوا من
الباب الضيق

" ادْخُلُوا مِنَ الباب الضَّيِّق،
لأنهُ واسعٌ البابُ ورحبٌ الطريقُ
الذي يؤدِّي إلى الهَلاك،
وكثيرون هُمُ الذين يَدخُلون مِنهُ !
مَا أضيقَ الباب وأكرَبَ الطريق
الذي يؤدي إلى الحياة،
وقليلون هُمُ الذين يَجدُونَهُ ! ".
(مت ٧: ١٣ـ ١٤)

العظة السادسة

ادخلوا من الباب الضَّيق

أي شركة للنور مع الظلمة؟

أريد أن أبدأ مرة أخرى درسي المعتاد وأعدُّ أمامكم المائدة الروحية، لكنني أتردد بعض الشيء وأتراجع، إذ أنني أرى أنكم لم تجمعوا ثمراً من هذا التعليم المتواصل، فعندما يبذر الزارع البذور بيد سخية في باطن الأرض، ثم يرى أن الإنتاج لا يستحق لكل هذا الجهد المبذول، فأنه لا يشرع في العمل بنفس الحماس، لأن الأمل في الحصاد الوافر دائماً يُلطِّف من عبء الجهد. هكذا نحن أيضاً نحمل هذا الجهد الكبير في التعليم بكل سهولة، إن وجدنا أنكم تحصلون على منفعة كبيرة بواسطته. لكن عندما نرى بعد كل هذا الوعظ الكثير والنصح والتوبيخ (إذ أننا لم نكف عن تذكيركم بالدينونة المخيفة والقضاء الرهيب والنار التي لا تَطْفأ والدود الذي لا يموت[٤٠]) أن بعض الذين سمعوا كلامنا (إذ أنني لا أحكم عليكم جميعاً) نسوا كل شيء وأسلموا أنفسهم مرة أخرى للعروض الشيطانية والسباقات، فبأي توقع سوف نشرع في نفس الجهود بعد ذلك ونقدم هذا التعليم الروحي أمامهم؟ فهم لم يجمعوا أي ثمر منها لكنهم فقط بحسب العادة صفقوا لما قلناه، مظهرين أنهم استقبلوا كلماتنا بكل سرور، وبعد ذلك رجعوا سريعاً لحلبة السباق. هم يعطون تصفيقاً أعظم لقائد مركبة السباق، ويظهرون هيجاناً صعب التحكم فيه. هم يسرعون معاً بحماس شديد، وفي أحيان كثيرة يتشاجرون مع بعضهم البعض، قائلين بأن حصان ما ركض بشكل سيئ وحصان آخر تعثر وسقط، شخص يتعلق بقائد أحدى المركبات وآخر يتعلق بمنافسه. ليس لهم أي تفكير أو ذاكرة لكلماتنا ولا للأسرار الروحية المرهوبة المعلنة هنا، لكنهم يقضون اليوم كله هناك كالأسرى في فخاخ الشيطان، مُسَلِّمين أنفسهم للعرض الشيطاني، ومُجلبين على أنفسهم العار أمام اليهود والوثنيين وأولئك الذين يبتغون السخرية منا.

---

[٤٠] " حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ " (مر٤٨:٤٨).

من يستطيع أن يتحمل هذا بدون وجع، حتى لو كان عديم الحس وذو قلب حجري، دون ذكرنا نحن (الآباء الكهنة) الذين نشتاق أن نعبِّر عن محبتنا الأبوية نحو جميعكم؟ كونكم تظهرون بأن تعبنا غير مثمر ليس هو الشيء الوحيد الذين يحزننا، لكن الذي يؤثر فينا بدرجة أكبر هو رؤيتنا أن أولئك الذين يفعلون هذه الأشياء يجلبون على أنفسهم دينونة أكثر حدِّة.

نحن نتوقع مكافأة تعبنا من السيد الرب، فقد أنجزنا دورنا، واستثمرنا وزنتنا الفضية، ووزعنا الوزنة التي عهد بها إلينا، ولم نغفل عن أي شيء من المهام الموكلة إلينا. أما بالنسبة لأولئك الذين أخذوا هذه الفضة الروحية فأي عذر يكون لهم، أخبرني، أي مبرر يكون لهم خاصة أن المطلوب منهم ليس فقط رأس المال بل أيضاً العائد[٤١]؟ كيف سيرفعون نظرهم أمام القاضي؟ كيف سيتحملون ذلك اليوم الرهيب وتلك العقوبات الشديدة؟ لا يُمكِنهم التظاهر بالجهل، أليس كذلك؟ فكل يوم نلقي بنبرات رنانة في أذانهم ونعظهم ونحفزهم ونُظهِر لهم مقدار الضرر والهلاك الناتج من ضلالهم، ونبين لهم حيل الشيطان، وبالرغم من ذلك لم نستطع أن نبلغ إليهم.

ولماذا أتكلم عن ذلك اليوم الرهيب؟ لنعلمهم أولاً عن هذه الحياة الحاضرة. أخبرني، كيف يمكن لأولئك الذين يشتركون في هذه العروض الشيطانية أن يحضروا هنا للكنيسة بكل ثقة، بينما ضميرهم يثور ضدهم ويصرخ بصوت عالٍ؟ ألا يسمع أولئك للقديس بولس المبارك مُعلم العالم عندما يقول: "**أيَّة شركةٍ للنور مع الظلمة ... وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟" (٢كو ٦: ١٤-١٥)، أي إدانة تستوجب للمؤمن الذي يخرج بعد نهاية الخدمة - أي بعد التمتع بالصلوات والتعليم الروحي والأسرار المقدسة التي يحتفل بها هنا - ليذهب ويجلس في ذلك العرض الشيطاني مع غير المؤمن؟! الذي قد استضاء بنور شمس البر يجلس مع ذلك الذي يهيم في ظلام المعصية؟!** أخبرني، كيف نستطيع بعد هذا أن نُسكِّت الوثنيين واليهود؟ كيف نستطيع جذبهم للحياة المسيحية، كيف يمكننا أن نقنعهم بتغيير موقفهم والانضمام لتعلم التقوى

---

[٤١] " أيها العبد الشرير والكسلان .... كان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع ربا " (مت٢٥: ٢٦، ٢٧).

الإنجيلية، عندما يرون أولئك المنضمون إلينا مرتبكون معهم في تلك العروض المهلكة، المملوءة بكل أنواع الفساد؟ **أخبرني لماذا بعد حضورك هنا وتطهير أفكارك وقيادة عقلك نحو التوبة والاعتدال، ترجع إلى هناك وتُدَنِس نفسك؟ ألا تسمع صوت الرجل الحكيم الذي قال: "واحد يبني وآخر يهدم فماذا ينتفعان سوى التعب؟!** " (سي ٣٤:٢٣).

هذا هو ما يحدث الآن، عندما ترجع إلى هناك وتهدم كل ما تم بناؤه هنا بواسطة التعليم المستمر والوعظ الروحي، وتدمره تدميراً كاملاً إلى الأساس. أي فائدة هناك من شرحنا لك عناصر البناء مرة أخرى من البداية، وفي اجتيازك التنقية مرة ثانيةً؟ ألا يكون هذا درب من الجنون والحماقة؟ أخبرني، إن رأيت شخصاً ما يعمل نفس الشيء مع المباني المادية المبنية بالأحجار، ألا كنت تنظر إليه كرجل مجنون يكدح عبثاً بلا فائدة، وينفق كل شيء بلا غاية؟ يجب عليك أن تفكر بنفس الطريقة فيما يتعلق بالبناء الروحي وتدلي بنفس الرأي في هذه الحالة أيضاً. وحيث أن نعمة اللّه قد خصصتنا لهذه المهمة، لذا كل يوم نرفع هذه البناية الروحية لمستوى أعلى، ونسعى جاهدين لقيادتكم في السير نحو الفضيلة، لكن بعض الناس من بين الحشد المجتمع معنا يمزقون في لحظة واحدة بأياديهم ذاتها وبتساهلهم الشنيع هذا البناء الذي تم رفعه بجهد عظيم. هم بذلك يسببون حزناً كبيراً لنا، ويجلبون على أنفسهم عقوبة شديدة وقاسية.

ربما أكون قد جعلت توبيخي شديداً جداً، إلا أنه من دافع محبتي لكم، ومع ذلك هو بعيد جداً عن ما يستوجبه ذلك التجاوز الكبير. لكن بما أنه من الضروري أن نمد أيدي المساعدة حتى للساقط، ونظهر اهتماماً أبوياً حتى بأولئك الذين على درجة كبيرة من الاستهتار، لذا لا أيأس من خلاصهم إن كانوا فقط راغبين في عدم السقوط في نفس العادات مرة أخرى، والتوقف عن السير وفِق الأهواء عند هذه المرحلة، وأن يحرموا أنفسهم من حضور عروض السباق وكل العروض الشيطانية المماثلة. **لنا سيد محب ووديع ومُهتم بكل واحد منا. عندما يرى ضعف طبيعتنا - عندما نسقط في خطيئة ما أو ننزلق بسبب كسلنا - يلتمس شيء واحد منا وهو أن لا نيأس بل نترك الإثم ونسرع بالتوبة والاعتراف. إن فعلنا ذلك هناك مغفرة سريعة موعودة لنا،** لأنه هو نفسه الذي

قال: "هل يسقطون ولا يقومون أو يرتد أحد ولا يرجع" (إر ٨: ٤). بما أننا نعرف ذلك، دعنا لا نستخف بسيدنا الرب الذي يحبنا كل هذه المحبة، بل لنتغلب على العادات الضارة. دعنا لا نسير من الباب الواسع والطريق السهل، كما سمعتم سيد الكل ينصح اليوم في الإنجيل قائلاً: "ادخلوا من الباب الضَّيق لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه" (مت٧: ١٣).

لا يخدعك الطريق الواسع:

عندما تسمع: "باب واسع" و"طريق سهل رحب"، لا تنخدع بالمدخل ولا تلاحظ بأن كثيرين يدخلون من خلاله، بل تنبه أن هذا الطريق يتحول في النهاية ليكون ضيقاً جداً. وخذ بعين الاعتبار أنه لا يتكلم عن باب مرئي أو مجرد طريق لكنه ينصحنا بخصوص حياتنا بأكملها وما يتعلق بالفضيلة والشرور. لهذا السبب هو يبدأ بقوله: "أدخلوا من الباب الضَّيق" داعياً طريق الفضيلة بهذا الاسم، وبعد ذلك يعلمنا السبب الذي من أجله أعطى هذه النصيحة. فهو يقول: مع كون هذا الباب ضيق ويتطلب جهداً كبيراً عند دخولك إلا أنك إن جاهدت فترة قصيرة سوف تأتي إلى مكان متسع جداً وطريق سهل يمكنه أن يقدم لك راحة كبيرة. فهو يقول: لا تنظر إلى ضيقه ولا تجعل البداية تقلقك، ولا تجعل ضيق المدخل يجعلك متردداً، لأن الباب الواسع والطريق الرحب يتجه نحو الهلاك. كثير من الناس ينخدعون بالبداية والمدخل الضَّيق، دون أن يروا مسبقاً أي شيء مما سيحدث في المستقبل، فيستسلمون للهلاك. لذلك يقول الرب: " واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه". حسناً دعاه باب واسع وطريق رحب الذي يؤدي إلى الهلاك. فهؤلاء المتلهفون للذهاب للسباقات والعروض الشيطانية الأخرى، الذين لا يحرصون على ضبط النفس، الذين ليس لهم أدنى تفكير بالفضيلة، الذين يريدون السلوك بشكل طائش، الذين يسلمون أنفسهم للرفاهية والشراهة، الذين يصرفون أنفسهم كل يوم في الجنون والخبل في سبيل المال، الذين يجاهدون وراء أمور هذه الحياة الحاضرة، هؤلاء الناس يدخلون من الباب

الواسع ويمشون في الطريق السهل الرحب. لكنهم عندما ينطلقون إلى الأمام لمسافة أبعد، جامعين لأنفسهم أحمالاً ثقيلة من الذنوب يُنهكون بالتمام، وعندما يأتون لنهاية الطريق لا يعودون قادرين على السير لأبعد من ذلك، لأن ضيق الطريق سوف يضغط عليهم بشدة، ووطأة خطاياهم ستثقلهم لأسفل، حتى أنهم لا يستطيعون الاجتياز، وفي النهاية لابد وأن يصلوا إلى حافة الهلاك عينها. أخبرني، أي منفعة تكون لذلك الإنسان الذي يصل للهلاك الأبدي بعد السير في الطريق السهل لفترة قصيرة؟!، وبعد حياة تَرف وبَذخ في حلم يُعاقب في الواقع؟!

فما هو ذلك الحلم الذي يستمر لليلة واحدة إلا هذه الحياة الحاضرة بأكملها، عند مقارنتها بالجزاء والعقاب الأبدي الذي ينتظرنا. كلام الإنجيل هذا لم يُكتب لكي نقرأه فقط ولا نفعل شيئاً إزاءه. لهذا السبب دبَّرت نعمة اللَّه أن تُحفظ عظات الرب وتُكتب، حتى بواسطة قبول العلاج منها كأدوية لأهوائنا يمكننا أن ننجو من العقوبة التي تنتظرنا. ولذلك أيضاً قدَّم السيد الرب في ذلك الوقت الأدوية الملائمة لجروح السامعين عندما نصح بالدخول من الباب الضَّيق. دعاه باب ضيق ليس بكونه ضيق في جوهره لكن بالنظر إلى طباعنا التي تميل بشكل عام نحو الكسل وتراه ضيقاً، ولا يدعوه ضيقاً لكي يصرفنا بعيداً بل لكي نتفادى اتساع الباب الآخر ونحكم على كل طريق من نهايته، ومن ثم نفضل اختياره.

الغنيّ والباب الواسع:

لكن لكي نجعل العظة مفهومة بسهولة من قِبَل كل شخص، تعالوا نُحضر أمامنا أولئك الذين دخلوا من الباب الواسع والذين مشوا في الطريق السهل، ولنرى أي نوع من النهاية استقبلتهم. ودعونا نُحضر أيضاً أمامنا أولئك الذين دخلوا من الباب الضَّيق وجازوا في طريق المِحَن، ولنرى أي نوع من الأمور المبهجة استقبلتهم. فبوضع أمامنا واحد من أولئك الذين دخلوا من هذا الباب الواسع، وواحد من أولئك الذين ساروا في طريق المِحَنْ الضَّيق، يمكننا أن نظهر صدق كلمات الرب باستخدام أحد أمثاله. من هو ذلك الذي دخل من الباب الواسع وسار في الطريق السهل؟ يجب علينا أولاً أن نُظهر من هو وإلى أي مدى ارتحل ماشياً في الطريق الواسع، ثم بعد ذلك يجب أن نوضح إليكم كيف

أنهى رحلته. أعلم أنكم قد استنتجتم ما سوف أقوله بذكائكم، تذكروا معي ذلــك الرجل الغنيّ، ذلك الشخص الذي كان يلبس الأرجوان والكتان الناعم كل يــوم، الذي كان يتناول غذاءه بشكل مُسرِّف، الذي كان يطعم الطفيليــين والمتملقــين، الذي كان يقدِّم الكثير من الخمر، الذي أسلم نفسه للشراهة والتنعم الكثيــر كــل يوم، هو دخل من الباب الواسع، كل الوقت كان يتمتع بالســعة وملــذات هــذه الحياة. كل شيء تدفق إليه بغزارة كما من ينبوع، كان له العديد مــن الخــدم، رفاهية بلا حدود، صحة في الجسد، الكثير من المال، كرامة من جمهور الناس، المدح من المتملقين، ولا شيء يسبب له الحزن إلى ذلك الوقت.

وبينما يمضي أيامه في مثل هذا السُكر والشراهة، لم يتمتع فقــط بصــحة جيدة وحرية كاملة من الحاجة، لكنه مع ذلك تجاهل لعازر المسكين المطــروح على بابه، الذي كان مضروباً بالقروح، والكلاب محيطة به تلحــس قروحــه، والذي كان يهزل من الجوع. لم يشركه معه حتى في الفتــات. الرجــل الــذي دخل من الباب الواسع وسار في الطريق السهل، أي طريق الرفاهيــة والفســق والضحك والاسترخاء والشراهة والسُكر وتكديس الأموال والطيش في الثيــاب. سار كل الوقت في الطريق السهل دون أن يُجرَّب بأي شيء مــؤلم فــي أثنــاء الحياة الحاضرة، بل كان على الدوام محمولاً بواسطة ريح لطيفة، وبقــدر مــا كان يمضي في الطريق السهل، كان يواصل الركض في مساره طليقاً من كــل هم. لم يواجه في أي مكان أرض غير ممهدة ولا منحدرات شاهقة ولا عقبــات خطرة تحت الماء، ولا كوارث، ولا تغيرات مفاجئة، لكنه وهو يــركض فــي مسار الحياة الحاضرة كان يسافر بشكل مستمر في طريق ممهد وثابــت. كــان يغرق كل يوم بموجات الشر دون أن يلاحظ ذلك. كان يتمزق كل يوم بالشهوات الشريرة ويُمتِّع ذاته. كان محاصراً على الدوام بالفسق والشراهة ومحبة المــال، دون أن ينتبه لهذه الأشياء الفظيعة، ولم يكن قادراً أن يرى مسبقاً نهايــة هــذا الطريق. لكنه كان يقطف فقط من الملذات الحاضرة، ولم يعطي أي تفكير للآلام الأبدية. في هذا الانخداع – إذا جاز التعبير – استمر سائراً في الطريق الســهل، منقاداً نحو حافة الهلاك ذاتها دون أن يدرك ذلك بسبب سكره. ازدهاره في كل مجال من مجالات الحياة أغرق صوابه، وأعمى بصيرته، وكشخص محروم من

البصر استمر في السير دون أن يعلم إلى أين يذهب. ربما لم يُفكِّر حتى في فناء طبيعته البشرية إذ أنه لم يواجه أي صعوبة في الحياة. لم يتمتع فقط بالرفاهية لكن بالثراء أيضاً، وليس بالثراء فقط لكن بالصحة الجسمانية أيضاً، وليس بالصحة فقط لكن بعناية الخدم أيضاً، وليس بعناية العديد من الخدم فقط بل برؤية كل شيء يتدفق إليه كما من ينبوع، وأمضى وقته في تنعُّم متواصل. أترون أيها الأحباء الرجل الذي دخل من الباب الواسع وسار في الطريق السهل؟ أرأيتم أي تَرف كان يتمتع به؟

لكن يجب أن لا يتجاسر أحد عند سماعه ذلك أن يدعوه محظوظاً قبل نهايته، فهو يجب أن ينتظر نهاية القصة، وعندئذ يمكنه أن يدلي بحكمه.

لعازر والباب الضَّيق:

تعالوا نُحضر أمامنا أيضاً الرجل الذي دخل من الباب الضَّيق وسار في طريق المِحَن. فعندما نرى نهاية كل منهما يمكننا أن ندلي بالقرار الملائم لكل حالة. من نقدمه الآن أمامنا إلا لعازر الذي كان مطروحاً على باب الرجل الغنيّ، المبتلى بهذه القروح، الذي كان يرى ألسنة الكلاب تلحس قروحه دون أن يكون له القوة الكافية لإبعادهم؟ وكما دخل الرجل الآخر من الباب الواسع وسار في الطريق السهل، دخل ذلك الرجل السعيد (إذ أنني أدعوه سعيداً لأنه أختار الدخول من الباب الضَّيق) من الباب الضَّيق، وسار في الطريق المعاكس لذلك الطريق ذو الكثير من الممتلكات. وكما عاش الآخر في تَرف دائم، عاش ذلك الرجل في صراع مع الجوع. الغنيّ تمتع مع الرفاهية والصحة الجسدية بفائض من الأموال التي كان يبددها يومياً في السُّكر والشراهة، أما ذلك الرجل فعانى مع الجوع والفقر المُدقع بمرض مزمن وقروح، ولم يحصل حتى على معيشته الضرورية، بل كان يشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنيّ، وحتى ذلك الفتات لم يحصل عليه.

نهاية كلا الطريقيْن:

أترى كيف استمر ذلك الرجل الذي دخل من الباب الضَّيق في السير في طريق المِحَن؟ وكيف استمر الرجل الآخر الذي دخل من الباب الواسع في السير

في الطريق السهل؟ لكن لنرى في آخِر المطاف نهاية كل واحد منهما، وكيف بلغ ذلك الرجل إلى نهاية ضيقة، أما المسكين فبلغ إلى مكان فسيح مليء بالراحة، حتى إن تعلمنا ذلك الدرس بكل عناية يمكننا أن لا نتبع الطريق السهل ولا نكون متلهفين على الدخول من الباب الواسع بل نسعى وراء الباب الضَّيق ونسير في طريق المِحَن حتى يمكننا أن نتمتع بنهاية مبهجة مليئة بالراحة. عندما جاء الحديث عن نهاية حياة كل منهما، قال الرب أولاً عن الرجل الذي سار في طريق المِحَن: "فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم" (لو١٦:٢٢)، اقتادته الملائكة في موكب، حاملة الرماح أمامه، وأعادته إلى مكان الراحة بعد كل هذه الضيقات وهذه الرحلة المحصورة. أترى كيف أتسع الباب الضَّيق وطريق المِحَن في نهايته؟ يجب أن ترى أيضاً النهاية المشئومة للطريق السهل، إذ قال الرب: "مات الغنيّ أيضاً ودفن" (لو١٦:٢٢). لم يتقدم أحد أمامه، لا أحد حمل الرماح، لم يقوده أحد في موكب كما فعلوا مع لعازر. ونظراً لأن الغنيّ قد تمتع بكل هذه الأشياء في طريقه السهل وكان له الكثير من الحراس والمرافقين – أعني المتملقين والمتطفلين – تم تجريده من الجميع عندما وصل إلى النهاية وصار معدماً وعرياناً بعد حياة التنعم أو بالأحرى بعد هذا الرخاء المؤقت والراحة قصيرة الأمد، إذ أن كل حياتنا الحاضرة قصيرة إن قورنت بالحياة الأبدية. وبعد الراحة القصيرة التي تمتع بها وهو سائر في الطريق السهل، استقبله مكان الحزن والضيق.

ارتاح الرجل الفقير في حضن البطريرك واستلم المكافأة المستحقة له عوضاً عن بؤسه وألمه الكثير. بعد جوعه وقروحه واضطجاعه على الباب تشارك في تلك الراحة الفائقة التي لا يمكن أن توصف بالكلمات، أما الرجل الغنيّ بعد تنعمه وتَرفه وشراهته وسُكره واجهه العقاب الشديد والعذاب في ذلك اللهيب. ولكي يتعلم كل منهما من النتيجة – فائدة الطريق الضَّيق والعاقبة المُرة للطريق السهل – رأوا بعضهم البعض من مسافة كبيرة. لنسمع كيف تم هذا: "فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه" (لو١٦:٢٣). يبدو لي أنه بعد أن رأى مثل هذا التحول الكامل للظروف وأن الرجل الذي كان منطرحاً على الباب ومُعرضاً لألسنة الكلاب يتمتع الآن

بكل هذه الثقة مُقيماً في حضن البطريرك، أما هو فمبتلي بمثل هذا الخزي بالإضافة إلى عذابه في هذا اللهيب المتقد، أحس بألمه بشكل أكثر حِدَّة. رأى الظروف تبدَّلت وعلم أنه عاش حياته المُترَفة وكأنها في حلم أو خيال، وأنه الآن يجوز العقوبة الشديدة إذ بلغ مثل هذه النهاية الضَّيِّقة بعد طريقه السهل وبابه الواسع، ورأى أن النقيض أيضاً قد حدث للعازر، وأنه يتمتع بهذه الأشياء الفائقة التي لا يُعبّر عنها بسبب احتماله الصبور في هذه الحياة. ومن ثم عند انخفاضه لحالة البؤس هذه وإدراكه بالخبرة الوهم الذي انخدع به باختياره الطريق السهل، قدَّم التماساً للبطريرك ونطق بدموع كثيرة كلمات مثيرة للشفقة. ذلك الذي لم يتحرك في السابق ولم يتنازل حتى ليرى لعازر المسكين المطروح على بابه بل اشمأز منه - إذا جاز التعبير- بسبب رائحة قروحه الكريهة، وبسبب حياته الطائشة التي كان يعيشها في تَرف مستمر، الآن يتضرع للبطريرك ويقول: "يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماءٍ ويبرِّد لساني لأني معذب في هذا اللهيب" (لو١٦:٢٤).

هذه الكلمات كافية لكي تثير الشفقة، لكنها مع ذلك لم تساعده قط، نظراً لأن اعترافه والتماسه كانا في غير أوانهما إذ لم يقدمهما في الوقت الذي كان فيه ذلك متاحاً. فهو يقول: أرسل لعازر الرجل الفقير الذي كنت أحتقره حتى هذا اليوم، الذي لم أعطه نصيب من فتات الخبز، الآن أنا أتوسل إليه والتمس ذلك الإصبع الذي كانت الكلاب تلحسه. هل ترى كيف أذلته العقوبة؟ ألا ترى كيف بلغ الطريق السهل في نهايته لنهاية ضيقة؟ وهو لا يقدم تضرعه للعازر بل للبطريرك إذ أنه لم يجرؤ على النظر مباشرة لوجه المسكين. أظن انه كان يتذكر سلوكه اللا إنساني معه ويفكر في قساوة قلبه تجاه لعازر، لذلك توقع أنه لن يلتفت إليه حتى ولو بجواب، لهذا السبب لم يقدم التماسه للعازر بل للبطريرك، لكنه مع ذلك لم يحصل قط على أي منفعة. **ما أردأ هذا الوضع، الناتج من السلوك بعد فوات الأوان، وتجاهل الوقت المعطى لنا في حياتنا الأرضية من لطف الله وعنايته كفرصة لأجل خلاصنا.**

من لا يلين من هذه الكلمات ولا يتحرك بالتعاطف والشفقة حتى ولو كان ذا شخصية صلبة جداً؟ إلا أن البطريرك لم يقبل التماسه بالرغم من ذلك، لكن أعلمه أنه هو المسئول على جلب هذه الشرور على نفسه، إذ قال له:" يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا والآن هو يتعزَّى وأنت تتعذَّب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوَّة عظيمة قد أُثبتت حتى أنَّ الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو ١٦: ٢٥-٢٦). هذا الكلام مُخيف وكاف للتأثير على كل نفس لها ولو أي إحساس. فلكي يوضح له أنه غير قادر على فعل أي شيء لمساعدته، بالرغم من كونه تحرك بالشفقة عند رؤية شدَّة عقوبته، اعتذر إبراهيم إليه قائلاً: أردت أن أمد يد المساعدة إليك لكي ألطف من ألمك وأخفف من شدَّة عقابك لكن بما أنك قد أخذت خيراتك مُسبقاً فأنك قد حرمت نفسك من هذه المساعدة. لهذا يقول له: "يا ابني أذكر"، أترى طيبة البطريرك، فهو يدعوه " ابني"، لكن مع كون ذلك يكشف نبل إبراهيم إلا أنه لا يقدم أي مساعدة للرجل الغنيّ لأنه غدر بنفسه. قال له: "يا ابني أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، أنتبه للأوقات التي مضت ولا تنسى مقدار التنعُّم الذي تنعَّمت به، ومقدار التراخي، ومقدار التفاخر، وكيف أنك أمضيت كل حياتك في الشراهة والسُكر، مفكراً أن حياتك بأكملها ستكون مغمورة بهذه الأمور، مقيداً نفسك بها كأنها أمور حسنة". قد حكم على نفسه بنفسه، حاسباً هذه الأمور حسنة دون أن يتخيل أياً من الأمور السامية أو يفكر في العاقبة الوخيمة التي تنتظره.

الأمور الحسنة والأمور السيئة:

حتى الآن أغلب الناس الذين يبتهجون بالتَرف والشراهة عادة عندما يرغبون في وصف حجم رفاهيتهم العالية يقولون: "عندنا أشياء كثيرة حسنة". لا تدعو هذه الأشياء حسنة بلا تحفظ أو قيد، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الأشياء معطاة من السيد الرب حتى بواسطة التمتع بها بالاعتدال المناسب يكون عندنا قوت لحياتنا ويمكننا التغلب على ضعف أجسامنا، أما الأمور الحسنة بالحقيقة (أي الفضائل) فهي شيء آخر. لا شيء من هذه الأشياء المادية حسنة

في ذاتها، لا التَرف ولا الثروة ولا الملابس غالية الثمن، بل هي لها فقط سمعة حسنة. لماذا أقول بأن لها فقط سمعة؟ لأنها في أحيان كثيرة تسبب في دمارنا عندما نستعملها بشكل غير لائق. **لا تكون الثروة حسنة لمالكها إن صرفها على التَرف والسكر والملذات المضرة، لكن إن تمتع بها في اعتدال ووزع الباقي على بطون الفقراء، حينئذ تكون الثروة شيء حسن. أما إذا كان سيسلم نفسه لحياة التَرف والخلاعة، فالثروة ليس فقط لن تفيده قط بل سوف تقوده إلى أعماق الهاوية.**

هذا ما حدث مع هذا الرجل الغنيّ. لذلك يقول له البطريرك: يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وما ظننته حسن هذا هو ما أخذته، أما لعازر فأخذ الأشياء السيئة وفقاً لمفهومك. لم يعتقد لعازر بأن هذه الأشياء سيئة لكن إبراهيم أضاف ذلك أيضاً وفقاً لرؤية الرجل الغنيّ. وثق الرجل الغنيّ برؤيته جداً وأعتقد أن الثروة والتَرف والانغماس في المتع الحسية وكل أمور العبث الأخرى أمور حسنة وافترض أن الفقر والجوع والأمراض العسيرة أمور سيئة. لذلك كما أنك افترضت وتمسكت بهذه الرؤية الخاطئة، تذكر أنك أخذت طبقاً لرؤيتك الأشياء الحسنة أثناء رحلة سفرك في الطريق الواسع والسهل، ولعازر أيضاً أخذ وفقاً لرأيك الأشياء السيئة أثناء سيره من الباب الضَّيق وفي طريق المحن. وذلك لأنك رأيت فقط بداية الطريق أما لعازر فتطلع أيضاً للنهاية دون أن تجعله بداية الطريق أكثر تردداً، لهذا السبب هو يتعزى الآن أما أنت فتتعذب، فقد بلغتما لنهايات معاكسة بعضكما البعض.

أيها الأحباء، قد رأيتم عاقبة الطريق الواسع والسهل بتتبع الأحداث، وتعلمتم أي نهاية حسنة تنتظر الإنسان الذي يختار الباب الضَّيق وطريق المحن. لنسمع ما هو مخيف بالأكثر : "وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوَّة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو١٦:٢٦)، ليتنا لا نعبر على هذا الكلام ببساطة أيها الأحباء بل لنفكر ملياً في المعنى الدقيق للكلمات، ولندرك أي مقدار من الكرامة والأسبقية تمتع بها ذلك الذي كان مضطجعاً على الباب، ذلك المسكين الذي كان من السهل احتقاره، الذي كان يصارع الجوع بشكل متواصل، والمبتلى بالقروح والمُعرض

للكلاب. **أنا أسرُ بعرض هذه الأمور أمامكم حتى لا يحتقر أي إنسان فقير أو مريض حالته، ولا يتأسف على نفسه، بل ليحتمل كل شيء بصبر وشكر، ويتقوى بالرجاء المبارك، مترقباً تلك المكافأة التي تفوق كل وصف، والمجازاة المفرحة لمعاناته.**

ما الذي يقصده بقوله: "وفوق هذا كله" ؟ فعندما قال له: أنت أخذت في حياتك الأرضية كل شيء ظننته حسن وهو أخذ كل شيء بغيض بحسب ظنك. أضاف تلك العبارة لكي يعلمه أن كل واحد تنتظره نهاية مناسبة: "بعد استمتاعك بما اعتقدته حسناً تلقاك الأسى والبلية والنار التي لا تطفأ، أما هو فبعد كفاحه طوال حياته الأرضية بما ظننته أنت شيء بغيض تلقاه العزاء والتنعم بالأمور المفرحة والراحة مع القديسين. كل واحد حصل على نهايته الملائمة، الباب الواسع والطريق السهل جعلك تصل لهذا الضيق، أما طريق المحن الضَّيق أتى به إلى هذه الراحة، وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوَّة عظيمة قد أثبتت".

أترى مكانة الرجل الفقير - ذلك الذي عانى من القروح - وهو مسجلاً في جوقة الأبرار، ومعدوداً مع البطريرك، إذ أنه يقول: "بيننا وبينكم". هل ترى مقدار النعيم الذي كان ينتظر الرجل الذي تحمل بصبر وشكر ذلك الجوع والمرض الشديد؟. ثم يقول: "وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوَّة عظيمة قد أثبتت". يقول أن الذي يفصلهم شيء عظيم، ليس مجرد هوَّة بل هوَّة عظيمة. **حقاً هناك مسافة عظيمة وفرق كبير بين الفضيلة والشر. طريق الشر واسع وسهل، أما طريق الفضيلة كرب ومليء بالضيقات. حياة التَرف واسعة وسهلة، أما الفقر والاحتياج كرب ومليء بالضيقات.**

وكما أن الطريقين في هذه الحياة الحاضرة متعارضين - فالشخص الذي يختار حياة البتولية يسير في طريق الضيقات الكرب، كذلك أيضاً الشخص الذي يسعى وراء العفة ويعتنق الفقر اختيارياً ويحتقر المجد الباطل، أما الشخص المتلهف بالسير في الطريق السهل الواسع يسلم نفسه للسكر والتَرف والفسق ومحبة المال والمشاهد المُعثرَّة - كذلك أيضاً في وقت العقاب والثواب ستكون هناك مسافة عظيمة بين مجازاة كل منهما، فهو يقول: "بيننا وبينكم هوَّة عظيمة

قد أثبتت" أي بين الأبرار والصالحين الذين أعدت لهم هذه الراحة، وبين أولئك الذين ضيعوا حياتهم في الإثم والشر. "هوَّة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا". هل رأيت ضخامة الهوَّة؟ هل رأيتم شدة وطأة الحكم الإلهي؟ عندما سمعتم في البداية عن ازدهار الرجل الغنيّ، وكيف كان يسهر على راحته الكثير من الخدم والمرافقين، وكيف أنه كرسَ نفسه كل يوم لكل وسائل الترَف، ألم تعتقد أنه كان محظوظاً إلى حد بعيد؟ وأيضاً عندما رأيت الرجل الفقير مضطجعاً على الباب ومبتلياً بتلك القروح المؤلمة، ألم ترثي لحاله؟ أما الآن بعد مشاهدة نهاية الأحداث نرى عكس ذلك: الرجل الغنيّ في اللهيب بعد حياة الترَف والسكر، أما لعازر فنراه في حضن البطريرك بعد الفقر المدقع والجوع.

لئلا نسترسل في العظة لوقت طويل، لنتوقف عند هذه النقطة، ونستعطف محبتكم أن لا تسعوا وراء الباب الواسع أو الطريق السهل ولا أن تنشدوا الراحة على الدوام، آخذين بعين الاعتبار نهاية كل طريق، ولنهرب من الطريق السهل متأملين في ما حدث لهذا الرجلِ الغنيّ، ولنسعى وراء الباب الضَّيق وطريق الضيقات، حتى يمكننا أن نصل إلى مكان الراحة. أتوسل إليكم أن تهربوا من عروض الشيطان ومشاهد حلبة السباق المضِرّة. قد وجدت من اللازم قول هذه الأشياء لأجل أولئك الذين تم إغواؤهم وساروا في الطريق السهل، حتى يتعلموا ترك هذا الطريق، وبواسطة السير في طريق الفضيلة الضَّيق يحسبون مستحقين لحضن البطريرك مثل لعازر، وحتى ننجو كلنا معاً من نار الجحيم ونتمتع بتلك الأمور المفرحة الفائقة الوصف التي لم تراها عين ولم تسمع بها أذاً، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح الذي له المجد والإكرام مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

فهرس الكتـاب

- تقديم نيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس ٥
- مقدمة الترجمة الإنجليزية ٧
- **العظة الأولى:** لعازر كمثال للتحمل والصبر ١٧
- **العظة الثانية:** المعنى الحقيقي للفقر والغنى ٣٧
- **العظة الثالثة:** الجهاد الروحي وحياة التَرف ٥٣
- **العظة الرابعة:** اعترف بخطاياك فتتبرَّر ٧٣
- **العظة الخامسة:** تأديب اللّه وإنذاراته ٨٩
- **العظة السادسة:** ادخلوا من الباب الضيِّق ١١٣

يُطلب هذا الكتاب من :

- ❖ بيت أبو سيفين للمرضى - شبرا.

ت: ٠١٦ ٥١٨٩٢٩٩

- ❖ مكتبة باناريون - مصر الجديدة.

ت : ٢٢٤١٥٢٢٧

- ❖ سائر المكتبات المسيحية.

Email: erinipasy@yahoo.com

واحد يُقتاد كأسير
وآخر يُحمل على الأكتاف كظافر
تماماً كالمحارب فى الحلبة الذى يتقبَّل العديد من الإصابات
ثم بعد ذلك يتم تتويجه بأكاليل الظفر
فيحيّونه المشجعين الواقفين أمام الحلبة بالهتافات العالية
ويقتادونه لمكان سكناه معُجبين ومُصفقين وصائحين
هكذا أيضاً اقتادت الملائكة لعازر
أمّا الغني فطُلبت نفسه منه بواسطة بعض القوات المُخيفة

القديس يوحنا ذهبي الفم

الثمن: ٦ جنيهات